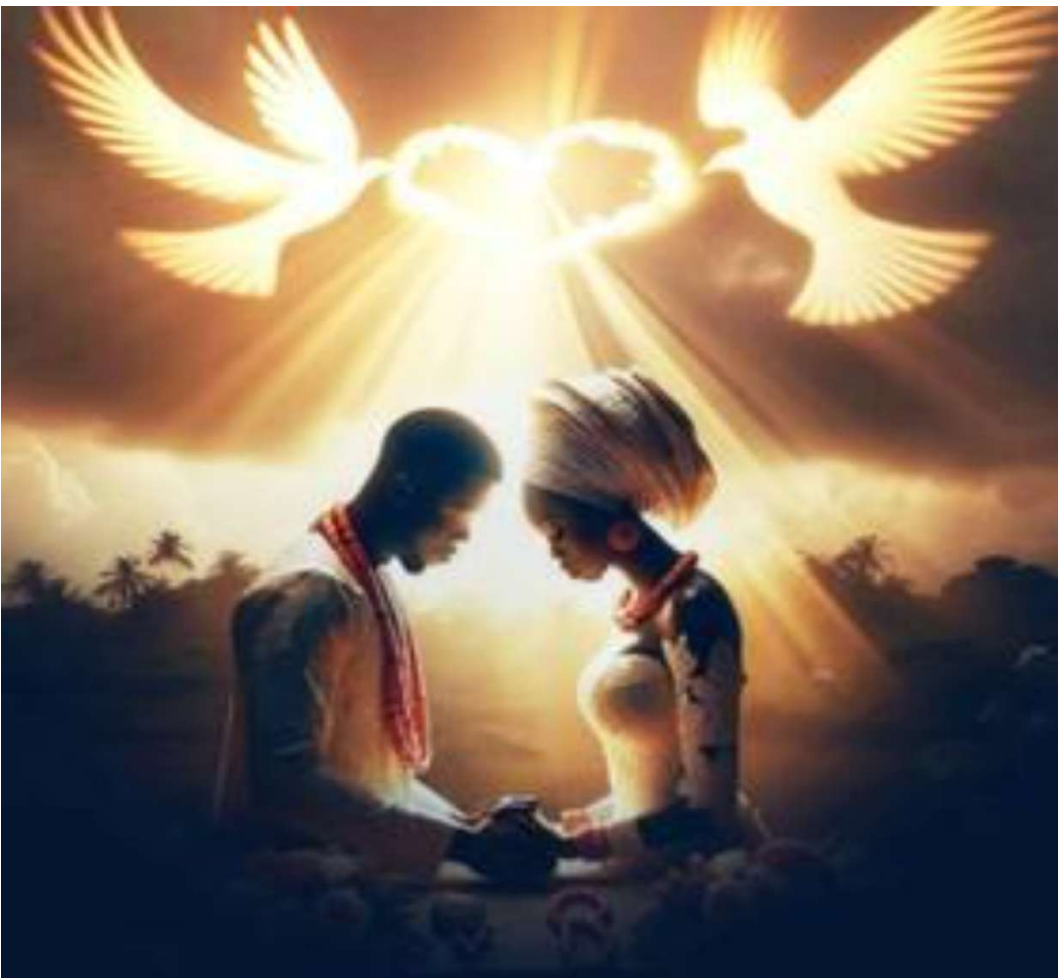

صراخُ الذّاكرة

المبشّر فضل السّيد

صراخ الذّاكرة

Kinzy Publishing Agency
"You Create, We Appreciate"

كتاب	:	صراخ الذاكرة
كاتب	:	المبشّر فضل السّيد
تصنيف	:	رواية عربية
عدد الصفحات	:	178 صفحة
مصممة الغلاف	:	فاطمة مصطفى
تدقيق	:	يمنى عبدالعزيز
إخراج فني	:	مريم محمد سيد
الترقيم الدولي	:	9789877918373

مدير مؤسسة سحر الروايات:
يمنى عبدالعزيز
رقم التواصل:
201123948790+
بيدج مؤسسة سحر:
https://www.facebook.com/ShrElRawayat

جميع الحقوق محفوظة ©

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعمال المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال المعروفة حاليا أو التي ترد مستقبلا دون إذن خطي مسبق من الناشر والمؤلف.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة على توجه المؤسسة بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول وكل ما يحتويه الكتاب مسئولية المؤلف.

رواية

صراخ الذاكرة

المبشّر فضل السّيد

الإهداء

"إلى أمي، وهي تُحمِّص حبّات البنِّ على موقدها الصغير،

لتطرد كل أطياف الكآبة...

أُهدي هذه الرواية."

اقتباس

"الذاكرة مثل العاصفة أو الجنون، عندما تستيقظ لا أحد يستطيع إيقافها، تجرف كل شيء في طريقها بلا رحمة."

واسيني الأعرج

مقدمة

"ثمّة تفاصيل، ومواقف، وذكريات، وأحداث معيّنة، تبقى عالقة في عمق الذاكرة لأزمنةٍ قد يمتدّ مداها إلى عمرٍ كاملٍ من الأسى، والضياع، والحزن...

وقد يمضي الإنسان حياته كلّها محاولاً نسيانها، ومهما حاول الانشغال عنها، فإنه لا مراء سيجثو ذات يومٍ على

رُكب الحنين، مفجعًا جراء صرخاتها التي تطلقها شوقًا واحتياجًا لأصحاب تلك الذكريات، بتفاصيلها وأحداثها.

كم هو مؤلمٌ هذا الصراخ!"

الفصل الأول

عزيزتي «شيماء»، أعلم أنك الآن في مكانٍ ما داخل قفص أحزانك، وأعلم أيضًا أنك تشتاقين لي في هذه اللحظة.

فعندما يُكبِّل الشوقُ قلبك بأصفادِ الحنين، ينبض قلبي، وتصمت ذاكرتي، لتكف عن الانشغال بكل ما في هذا الكون

من تفاصيل، وأشخاص، وأشياء أخرى، كأنها تاهت في إغفاءة وقتية، وأُصيبت بشللِ التفكير.

وعندما تصحو من تلك الإغفاءة، يكون أول من تبدأ في استرجاعه هو أنتِ، كأنك تقفين على أعتابها وتنتظرين إشارة الولوج داخلها.

أخبرتني في إحدى الأمسيات أنكِ عندما تبدئين في التفكير بي، أكون مسبقًا حاضرًا في ذاكرتك!

فأخذتُ وقتًا طويلاً في تحليل هذه الجملة وشعرتُ بغرابتها.

ولكنك سرعان ما ساعدتني في العثور على إجابةٍ منطقيةٍ، بفلسفتك الجريئة في تفسير كل شيء، فقلتِ لي:

(بداية التفكير فيمن نحب، ما هي إلا سانحة لبداية الشوق اللحظي، وقتها تلتهم نار الوجدِ كافة الأحاسيس، كاسرةً كل صمت الذاكرة، فتعاود الصراخ تارةً أخرى).

أجل، للذاكرة صمتٌ لا يكسره إلا بداية الشوق اللحظي، فتُطلق صرخاتها المميتة، المرهقة للحواس، والتي تُشعل نار الوجدِ لتتأجج داخل قلب العاشق اشتياقًا لمحبوبه.

عزيزتي، رغم كل هذه التفاصيل، والأشياء الصغيرة التي أمامي:

ورق مبعثر، شمعة خافتة الإضاءة، دفاتر مهترئة، كوب قهوة بات كالثلج، سماعة أذن، وقلم . ورغم كل ما حولي، إلا أنني لم أكفَّ عن التفكير بك لحظةً واحدةً.

كل هذه التفاصيل لم تشغلني عنك.

لا أخفيكِ القول، إنني حاولتُ بكل الطرق أن أهرب من طيفك، مرارًا، مستخدمًا كل السبل، ولكنني لم أفلح في ذلك على الدوام، وغالبًا ما أجد طيفك أول الحاضرين إلى أبواب عقلي، المغلقة أمام كل الوجوه عداكِ.

والآن، كيف حالك بعد الفراق؟

نعم، أعلم أنه مرُّ المذاق. في الحقيقة، لا يوجد في هذا الكوكب فاجعة أدهى وأمرّ من فاجعة الفراق، ولا يوجد ما هو أسوأ من طعم النوى.

كنتُ دائمًا أرتعب من تلك الفكرة (فكرة الفراق)، تلك الفكرة التي لم يستوعبها عقلي حتى هذه اللحظة، بل لم يستوعب فقدانك إطلاقًا.

فكيف يا «شيماء» بعد كل هذا الكمّ الهائل من العشق، والألفة، والتناهيد التي أطلقناها معًا في جوف الأمسيات وأوقات زفير المشاعر، وتلك التفاصيل المختلفة، التي لم أزل مريضًا بها، وكل تلك اللحظات التي عشناها معًا، فكل لحظة تحمل بداخلها تفصيلة معيّنة، كيف لنا أن نفترق ويعيش أحدنا بعيدًا عن الآخر؟!

أيعقل هذا يا «شيماء»؟!

أذكر أنك قلتِ لي في إحدى الأمسيات، وكنتِ وقتها تتكئين على كتفي في أمسية شتوية باردة في ذلك المقهى:

ـ لو تعلم يا «عاطف» أن أكثر ما يرعبني ويخيفني حدّ الفجيعة والوجوم، أن أفتقدك. وقتها سأكون في حالة

استعدادٍ لمغادرة هذا الكون في أسرع وقت، فإني لا يهمني في كل هذا الوجود سواك.

فصمتت ذاكرتي عن الصراخ في تلك اللحظة، ولم يُسعفني تفكيري في الإتيان بمفردات تناسب قسوة تلك الجملة.

وبعد ردهة تفكير شبه قصيرة، استطعتُ أن أرمم بقايا مفردات كانت عالقة منذ أمدٍ على سطح الذاكرة، فقلتُ لكِ:

– شيماء، دعينا نفعل كل شيء، دعينا نتشاجر، ونتخاصم، ويعاتب أحدنا الآخر، ويلعنه، ويكرهه، دعينا نحزن، ونسقط، ونقف، ونسير مجددًا، نفعل كل ذلك، بشرط ألا نفترق.

ولكن، ماذا حدث بعد كل تلك الوعود؟

آنها كانت مجرد وهمٍ عابر، أم أننا أَجحفنا في حقها؟

فلا الوعود بقيت، ولا عشقنا دام!

والآن، مضى على فراقنا عامٌ، عامٌ من الأسى، والأنين، والأشواق، والآهات، والوجع.

عامٌ كاملٌ ولم ألتقِ بكِ إلا في ذاكرتي فقط، عامٌ كاملٌ ولم يُبصر النور قلبي.

عندما كنتِ تغيبين عني يومًا واحدًا فقط، كنتُ أحسبه قرنًا، فكيف إذا كان الفِراق عامًا؟!

عامٌ كاملٌ ولم تشخ المشاعر، ولم يهرم الشوقُ، ولم يتكئ القلب على وسادة النسيان.

ما زال قلبي يضخ بدماء عشقك، كأنكِ المصبّ الرئيسي الذي يغذّيه في مواسم شُحّ مطر الأحاسيس، وكل نبضة من نبضاته تنبض بكِ.

نعم، لقد كان الرحيل إجباريًا، رغم محاولاتي العديدة في إخماد ثورة الفراق، ورغم وقوفي في وجه كل الشجارات، وجميع العوائق التي تعارض مشوار عشقنا، إلا أنك لم تقاتلي بجواري قتالاً كافيًا يليقُ بمكانتي في قلبك.

كان علينا أن نقاتل معًا، وأن نقف سدًّا منيعًا أمام كل الظروف حتى لا نفترق.

كان الأمر يستحق منا أن نقدم كل التضحيات والمعاناة، كان يستحق أن نهرب معًا، ننتحر معًا، نترك هذا العالم لمن يريدون فراقنا. كانت أمامنا خيارات عديدة، ولكنك تركتِني

ولم تفعلي شيئًا حيال ذلك، غير عابئة بما سيحدث لي من هجر، وذبول، وضياع، وحزن، وألم!

يقولون إن العوائق والمشكلات تقوّي العلاقات أكثر من أن تضعفها.

فقد كنا، في كل مشكلة تحدث بيننا، نضع استمرارية قصة غرامنا كأولوية قصوى، ودائمًا ما كنا نرمي بكل العوائق عرضَ حائط الماضي، ونفتح بعدها إحدى صفحات المستقبل.

كان حبنا أقوى من كل الظروف، وكانت قافلتنا تسير رغم نباح كلاب الفراق.

لقد كان قرار رحيلك يا «شيماء» أشبه بطعنةِ خنجرٍ مسموم، كأنه غُرس في حنايا قلبي، ولم يزل مغروسًا حتى هذه اللحظة.

تمنيتُ أن أقف الآن أمامك كي أسألك: لماذا فعلتِ هذا؟

وما جدوى رحيلك وابتعادك عني، رغم أنك لم تفكري بذلك يومًا؟!

ولكن ما جدوى هذا السؤال الآن؟

هل سيعيدك لي؟

أعلم أنه لا يمكن العثور عليكِ بعد الآن، وأعلم أيضًا أنك لم ولن تقعي في عشق رجلٍ غيري.

نعم، بالطبع لن تفعلي ذلك، أعدك.

فلا يوجد في هذا الكون من يعشقك أكثر مني، ويقدّم لكِ ربع ما أكنّه لكِ.

فأنا عشقتكِ بكل حواسي، بأوجاعي، بآلامي، بخيباتي، بصفعاتِ الخذلان المتكررة التي تعرض لها وجه قلبي.

عشقتكِ روحًا قبل أن أعشقكِ جسدًا، وقدّمتُ لكِ قلبي كهدية باهظة الثمن، فهو أغلى ما أملك.

ولكِ أن تعلمي، أنه لا يوجد أغلى ما عند العاشق من قلبه.

أعلم أيضًا أنني لم أفارق مخيلتكِ مهما طالت الأيام، وتعددت لقاءاتك، وكثر الناس حولكِ.

حتى وإن أصبحت وردة الغرام بداخلك على وشك الذبول، فحتمًا سيمطر عليها مطر الذكريات، فتعاود الازدهار مجددًا.

ولن تستطيع الأيام إخماد ثورة الشوق داخل قلبكِ، فكلانا وهب الآخر كل حياته.

لقد غرقتُ في التفاصيل يا «شيماء».. غرقتُ بالكاد، ولا سبيل للنجاة بعد الآن.

يستطيع المرء تجاوز كل آلامه، وفجائعه، وهزائمه، ولكنه لا يستطيع تجاوز روحٍ أحبّها بصدق،

روحٍ غدت تقطن كل حواسه وأفكاره،

روحٍ باتت تتوسّد عمق ذاكرته، وكلما حاولت أن تصمت أبواق حنينها، صاحت تارةً أخرى، لتعلن عن فاجعةٍ أخرى من فجائع الفراق، والأشواق، والحنين المرعب، لتنادي هاتفةً لروحٍ سكنت بداخلها.

***

عزيزتي «شيماء»،

إنكِ لتعلمينَ جيّدًا أنَّ للذّاكرةِ صراخًا لا يستطيعُ إسكاتَه سوى الشّيءِ الذي صرختْ لأجلِه، ولها صمتٌ لا يكسرُه إلّا الشّوقُ وأجراسُ الذكرى.

فما تزالُ ذاكرتي تُبالغُ في الصُّراخِ وهي تستحضرُ كلَّ تلكَ التّفاصيلِ التي حدثتْ في أوّلِ لقاءٍ لنا، فهي في كلِّ حينٍ تكونُ حاضرةً، تنهشُ بمخالبِها كلَّ خلايا الصّمتِ، فتوقظُه من غفوتِه لتُعاودَ الذّاكرةُ صراخَها بعد صمتٍ مُبهمٍ.

سيظلُّ يومًا خالدًا في ذاكرتي، ولن تتلاشى تفاصيلُ أحداثِه أبدًا.

يومَها كنتُ في (مطارِ الخرطومِ الدوليّ) مسافرًا إلى المملكةِ العربيّةِ السّعوديّة، أحملُ بداخلي كلَّ همومِ الغربةِ

والرّحيلِ، وخائفًا ممّا تُتوعدني به من مرارتِها وقسوةِ أيّامِها ونارِ الشّوقِ والبَينِ.

فكنتُ جالسًا على أحدِ المقاعدِ داخلَ ساحةِ الانتظارِ، شاردًا في عالمٍ وحدي أعلَمه، وذاكرتي مُصابةٌ بتخديرٍ مؤقّتٍ.

فلقد سكنتْ كلُّ الفوضى التي كانت تجتاحُها من قبلُ، وهمدَ صراخُها، لتغدوَ بعدَ ذلك هرِمةً لا تقوى على استرجاعِ تفاصيلَ ما قبلَ الوداعِ الأخيرِ، وكأنني فقدتُها إلى الأبدِ.

وبينما أنا شاردٌ أُراقبُ وجوهَ المارّةِ غيرَ مُبالٍ بشيءٍ، كأنني أرى دُمًى حولي، فإذا بصري يقعُ على فتاةٍ سمراءَ، فارعةِ القوامِ، عيناها ناعستانِ، تُخبّئان أسرارَ عالمٍ بأكملِه، فاتنةٍ

حدَّ الدّهشةِ، واثقةِ خُطى، تمشي الهوينى بتبخترٍ، فكأنّ كلَّ السّحرِ تجمّعَ في شخصِها.

فجأةً انتعشتْ ذاكرتي، وفاقتْ من غفوتِها، وانكسرَ صمتُها المؤقّتُ، وبدأتْ تُطلقُ صرخاتٍ نابعةً من كلِّ خلاياها، كأنّ شيئًا ما اجتاحَها، شيءٌ لا وجودَ له على خارطةِ التوقُّعِ، فأحيا فيها ذكرياتٍ كانت هامدةً في مقابرِ النسيانِ، وجاثيةً على رُكَبِ العزلةِ منذ عهودٍ بعيدةٍ.

وقتها كانت تنفثُ سيجارةً بحرقةٍ ناتجةٍ عن كآبةٍ أرهقتْ ذاكرتَها، وتطفو على ملامحِ وجهِها الملائكيِّ، وتجلسُ على مقعدٍ في مكانٍ ما، وتنظرُ إلى ساعةِ يدِها بين الفينةِ والأخرى، تترقّبُ موعدَ إقلاعِ الطّائرةِ بتوتّرٍ واضحٍ.

لا أعلمُ كيفَ خرجتُ عن سورِ كبريائي – الذي اعتدتُه طوالَ حياتي – في تلكَ اللّحظةِ، وقصدتُها بلا تردُّدٍ وبلا مُبالاةٍ.

ثمّةَ شيءٌ ما شدّني إلى ذلكَ، خلافَ جمالِها وفتنتِها، وتفاصيلِها الأنيقةِ في تلكَ الأمسيةِ.

ربما أنّ القدرَ أراد أن يجهّزَ لي مفاجأةً ما، هكذا همسَ لي حدسي، ولكنني كنتُ غيرَ آبهٍ بما تحملهُ مفاجآتُه.

وعندما اقتربتُ منها، لم تسعفني ذاكرتي في رتقِ كلماتٍ تُناسبُ مدخلاً لحوارٍ معها، حوارٍ يليقُ بأناقتِها دون أن أتلعثمَ وأظهرَ في صورةِ مراهقٍ ساذجٍ، مغامرٍ.

فأنسبُ جملةٍ وجدتها تقفُ على عتبةِ لهاتي، كانت:

– السّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته.

فبادلتني التّحيّةَ مصحوبةً بابتسامةٍ لطيفةٍ تُزيّنُ ثغرَها الآسرَ، قائلةً:

– وعليكم السّلام ورحمةُ اللهِ وبركاته.

فقد كانت مدخلاً حسنًا لحوارٍ طويلٍ، يضمُّ في محتواهُ كلَّ الأسئلةِ الفضوليّةِ التي كنتُ أحملُها على متنِ تفكيري.

قلتُ مضطربًا:

– يبدو أنّكِ تترقّبين وقتَ إقلاعِ الطّائرةِ.

ردّت بهدوءٍ وهي تمدُّ السّيجارةَ إلى فمِها، قائلةً:

– أجلْ..

تأمّلتُها عن كثبٍ، قائلاً:

– إنّها المرّةُ الأولى التي أركبُ فيها طائرةً، بل إنّها المرّةُ الأولى التي سأُغادرُ فيها السّودانَ.

ردّت ولم تزلْ محتفظةً بهدوئِها، قائلةً:

– قرأتُ ذلك من ملامحِك.

سألتُها بانتباهٍ:

– كيفَ؟

أجابت:

– تبدو كمهرّجٍ وأنتَ مُصابٌ بالذّهولِ!

اغتظتُ منها نوعًا ما، وقلتُ محاولاً ردَّ حقِّ استفزازي، قائلاً:

– ولكنني لم أكنْ متوتّرًا مثلَكِ!

قالت وهي تنظرُ بعيدًا غيرَ منتبهةٍ لوجودي:

– أحيانًا قد لا يكونُ التوتّرُ جرّاءَ السّفرِ والغربةِ، ربما هناكَ أشياءٌ وتفاصيلُ أخرى تفعلُ ذلك.

استفزّني هدوؤها، فقلتُ منعطفًا عن مجرى الحوارِ، سائلاً:

– هل هذه المرّةُ الأولى التي تُسافرين فيها خارجَ السّودانِ؟

ردّت وهي تُطلقُ تنهيدةً، قائلةً:

– لا إطلاقًا، لكَ أن تقولَ إنني وُلدتُ داخلَ حقيبةِ سفرٍ منذُ صغري.

حدث هذا الحوارُ القصيرُ وأنا أقفُ وأتأمّلُ تفاصيلَ وجهِها، الذي بانَ لي عن كثبٍ أنّه أجملُ من قبلُ، بيدَ أنَّ

عينيها كانتا تشعّانِ نورًا وهي تنظرُ بهمِّها لمن توجّهَ له الحديثُ، فيرتبكُ الرّائي ويتوهُ في عوالمِ السّحرِ والخيالِ.

كان موعدُ إقلاعِ الطّائرةِ بعدَ ساعتين، فجلستُ على مقعدٍ بالقربِ منها، ووجدتُها سانحةً مناسبةً للغوصِ أكثرَ في تفاصيلِ حياتِها، آملاً بتعارفٍ يُخرجني من حلقِ ضيقِ الكآبةِ، ومحيطِ الأحزانِ والأوجاعِ، والألمِ الذي عانيتُه طوالَ مدّةِ حياتي السّابقةِ.

ذلكَ الألمُ الذي أرهقَ ذاكرتي لأمدٍ طويلٍ جرّاءَ علاقةٍ سامّةٍ كنتُ أعيشُها بكلِّ غبائي وصدقِ نيّاتي.

فأهدرتُ فيها عمرًا من الوجعِ والتّضحياتِ، وقدّمتُ فيها تنازلاتٍ عديدةً، بما في ذلكَ كرامتي الشخصيّةَ، ظنًّا مني بأنّ العلاقاتِ عمومًا لا تعترفُ بالكرامةِ والكبرياءِ.

فقد كنتُ أبدو فيها كطفلٍ يبحثُ طوالَ لحظاتِ حياتِه عن جرعاتِ حنانٍ من والدتِه المتوفّاةِ قبلَ أشهرٍ، ودائمًا ما أعودُ منها مثقَلاً بكافّةِ أنواعِ الخيبةِ والخذلانِ.

***

الفصل الثاني

ما زالت تنفث تلك السيجارة التي أوشكت على التلاشي، فثمة رشفةٌ أخيرةٌ، وتسري بقايا دخانها لتعلن حتفها.

وقبل أن تنفث ما تبقّى منها، سألتها بذات الفضول، قائلاً:

– هل ذاهبةٌ إلى «السعودية»؟

أجابت وهي ترمي بقايا السيجارة في إحدى السلّات، قائلةً:

– نعم.

وأردفت قائلةً:

– وأنت أيضًا ذاهبٌ إلى هناك؟

أجبتها بيأسٍ:

– نعم... ولكن!

سألتني، قائلةً:

– ولكن ماذا؟

فقلتُ متنهِّدًا:

– ولكني تائهٌ، وأخشى هموم الغربة.

وبذكاءٍ منها، حاولت تغيير مجرى الحوار الذي كاد أن ينعطف إلى تيارِ حزنٍ، ويفسد طبيعةَ اللحظة، قائلةً:

– أحتاج من أُفْضِي له عمّا بداخلي، فبداخلي قصةٌ بالغةُ التعقيد.

وأردفت:

– لا تخف عزيزي، فأنا تائهةٌ مثلك تمامًا، رغم أنني ذاهبةٌ إلى أهلي بعد مدّةِ نقاهةٍ هنا في هذا البلدِ الكئيب، ولم أستفدْ منها شيئًا على الإطلاق.

لم تكن سوى مدةٍ زادت من كآبتي ورصيدِ أحزاني.

فلقد مررتُ بأبشعِ أيامٍ، رغم أنني حاولتُ الخروجَ والتنزّهَ وزيارةَ عددٍ من المناطقِ السياحية، فظلت لعنةُ الخيباتِ تُطاردني بذكرياتها.

خرج الكلام من حلقِها مهزوزًا، وبات شبحُ الحزنِ يُمطر ملامحها بقطراتِ الأسى، ويخيم على ملامحها أكثر مما كانت عليه.

فعدّلتُ قعدتي، ووجّهت كلَّ انتباهي نحوها، وقلتُ بشغفٍ كنت أفتقده منذ زمنٍ:

– هل لي أن أنال هذا الشرف؟

مضيفًا:

– فإن لم تمانعي، فافضضي عمّا بداخلك وأخرجيه كي تستريحي قليلاً، فكلٌّ منا يحتاج لمن يسمعه، وينصت إليه.

والآن، هيا أفصحي لي عمّا تودين الإفصاح عنه.

وقبل أن تتفوّه بكلمةٍ واحدةٍ، سألتها، قائلاً:

– ولكن أولاً، عليَّ أن أعرف ما اسمك؟

ما زلتُ أفتكر تلك التقطيبة التي ظهرت فجأةً على وجهها، لترسم على سطحه فسيفساءَ من تجاعيدِ الحزن.

فردّت قائلةً:

– يا إلهي، لقد نسيتُ أن أخبرك بذلك، اسمي «شيماء عثمان».

فقلتُ معرّفًا بنفسي:

– وأنا «عاطف عباس» عزيزتي.

مستطردًا:

– اسمك جميلٌ للغاية، كتفاصيلك.

تردّ بتلك الابتسامةِ الساحرةِ، والمريرةِ في ذات اللحظة، قائلةً:

– هذا لطفٌ منك عزيزي، واسمك أيضًا جميل، ولا شكّ أنك عطوفٌ، وحنونٌ للغاية.

مضيفةً بدعابةٍ، قائلةً:

– يقولون الاسمُ يعطي الربع!

فابتسمتُ، قائلاً، ومؤكدًا:

– أحيانًا يعطي أكثر من النصف، أجل عطوف، وهذه مشكلتي عزيزتي.

ودون أن تنبس ببنتِ شفةٍ، سألتها بموضوعيةٍ، قائلاً:

– والآن أخبريني، ما قصتكِ يا شيماء؟

تنهدت، وأطلقت زفيرًا فاترًا، ورتّقت أفكارها بعد برهةٍ قصيرةٍ، قائلةً:

– حسنًا، سأخبرك بقصتي، فهي طويلةٌ للغاية، وكما ذكرتُ لك من قبل، هي أيضًا معقّدةٌ وغريبةٌ نوعًا ما.

قلتُ بإصغاءٍ تامٍّ:

– حسنٌ، أنا أسمعكِ بكلّ سرورٍ، عزيزتي.

قالت:

– فيما تبقّى من زمنٍ، سأَسرد لكَ بكلّ اختصارٍ قصةَ حياتي، أو فلتقلْ أهمَّ أحداثِ حياتي، وكلَّ ما يدور في خاطري من أفكارٍ حبيسةٍ منذ أشهرٍ، فظلت كامنةً تبحث عن مخرج.

وبدأتْ تسرد قصتها، وأنا مُنصتٌ بكلِّ حواسي، فأطلقت العنانَ لذاكرتها التي شعرتْ بمرونتها وهي تمدّها بالتفاصيل:

(أولاً، لا تسألني لماذا وثقتُ بشخصٍ غريبٍ التقيته لتوك كي تقصّ عليه تفاصيلَ من حياتك؟!

عزيزي عاطف، أنا لديَّ قدرةٌ هائلةٌ على قراءةِ الأشخاص، وأعلم جميعَ نوايا الرجال.

فمن خلال قراءتي لملامحك البريئةِ، علمتُ تمامًا، حدّ التأكد، أنك لا تحمل في نواياك شيئًا سوى عفويتك، ونقاء قلبك.

فبرغم غرقي في بحيرةِ أفكاري، ورغم كآبتي وحزني، إلا أنني كنتُ أراقبك بين الفينةِ والأخرى وأنت تجلس هناك على ذاك المقعد، صامتًا، وغارقًا أيضًا في ضجيجِ أفكارك الخاصة بك.

فعلمتُ أنك أيضًا تائهٌ مثلي، وتبحث عن أنيسٍ يؤنسك في هذه الرحلةِ الرديئةِ الظروفِ والتوقيت.

وعندما أتيتني، سررتُ جدًا.

ولكنني أخفيتُ ذلك عنك عمدًا، تحفّظًا على كبريائي.

فكنتُ أيضًا أتمنى أن يتحدث أحدُنا إلى الآخر، فضولاً.

لك أن تقول إنني قد وجدتُ الآن ذلك اللّقْطَ الذي أبحث عنه، فأنا أيضًا أحتاج رفيقًا في هذه الرحلة، رغم قصرِ مدّتها.

نعم، ربما سنفترق بعد لحظاتٍ، ولكن وقتها سأكون قد تحررتُ من كلّ القيودِ التي تُكبّل أفكاري بأصفادِ الكتمان.

تعلم عزيزي «عاطف» أنني ليس لديَّ أصدقاءُ مقرّبون منذ مدةٍ طويلةٍ.

فلقد خذلني الجميع، حتى ذاك الشخصُ الذي أحببتُه بكلّ حواسي، وظننتُ أنه لن يغدر بي أبدًا، وبكلِّ أسفٍ، لقد أثبت لي أنني كنتُ مخطئةً في ظنّي تمامًا، حدّ الغباء، وخذلني، وخانني مع أقربِ رفيقةٍ لقلبي في لحظةٍ، ناسيًا كلّ الوعود، والأحلام، والعهود التي وقّعنا عليها معًا بحبرِ الأمل، وكلّ الآمال التي بنيناها بالعشقِ والأُلفة.

فكلّ الأمنياتِ غدت سرابًا لتحملها رياحُ الأسى.

ومنذ ذلك الحين، اعتزلتُ الجميع، وقررتُ أن أعيش من أجلِ نفسي، وأسعد نفسي بنفسي، واضعةً كلَّ ثقتي، وأسراري، وخبايا قلبي، وكلَّ تفصيلةٍ تخصّني داخل صندوقِ أسرارِ قلبي.

فرفضتُ دخولَ أناسٍ كثيرةٍ إلى حياتي.

فهذا هو سببُ كتمي لأسراري، وتفاصيلِ حياتي، لأحتفظ بها داخلي.

لقد خُدعتُ، يا عزيزي «عاطف»، حدَّ الإيلام، من أقربِ رفيقةٍ لقلبي، تلك التي كنتُ أعتبرها بمثابةِ نصفي الآخر، ومكمنِ أسراري.

ولم أكن أعتبرها محضَ صديقةٍ فحسب، بل كانت أختي التي أُباهي بها كلَّ البشر، كقطعةِ ماسٍ تشعّ داخل ديارِ قلبي.

ولكن ذاتَ يومٍ حدث ما لم أكن أتوقعه إطلاقًا، فأنا كعادتي أخبرها بكلّ ما يحدث في حياتي، وبكلّ ما أشعر به، وبكلّ تفصيلةٍ وإن تكن تافهةً لا تستحق.

فصادف ذلك اليوم، عيدَ ميلادِ خطيبي، فقررتُ اصطحابها معي للقائه كي نحتفلَ معًا، فهي رفيقتي الوحيدةُ

التي لم يرقْ لي الفرحُ بدونها، ففرحها يسعدني، وفرحي يسعدها، وكانت تكنّ لي الشعورَ نفسه بداخلها.

فساعدتني جدًا في تغليفِ الهدية، وهي من اختارتها نيابةً عني، وذلك لتقارب أذواقنا.

فلقد كانت جميلةً للغاية، ولما رآها خطيبي عندما التقينا، شعرتُ بنظراتِه تتبعها باستمرارٍ، غيرَ آبهٍ بحضوري، وتلك الهديةِ التي مددتها له، وحتى عندما جلسنا على الطاولةِ لتقطيعِ كيكةِ الحفل، ظلّا يسرقان النظرَ لبعضهما بين الفينةِ والأخرى.

كنتُ وقتها أحترقُ قهرًا، ونارُ الغيرة باتت تأكلُ أحشائي بشراهةٍ، وتغيّرت ملامحُ وجهي الذي أصبح مكفهرًا، وانقبض قلبي.

ولكنه، رغم ذلك، لم ينتبه لحضوري طوال مدةِ الحفل.

وعندما أطفأنا الشموع، استأذنتُ مغادرةَ المكان، وتركتهما معًا.

فلحقت بي رفيقتي بعدما أحسّت بتغيّر ملامحي جراء تركيزِه معها وحدها، وظلّ هو في مكانه ولم يلحق بي.

فسألتني كأنها لم تكن على علمٍ بسبب امتعاضي، قائلةً:

– ما بكِ يا شيماء؟

أما تودين قضاءَ بعضِ الوقت مع خطيبك؟

أجبتُها بعدما حدجتها بنظرةٍ تفسر كلَّ مكوناتِ القهرِ والحرقة، قائلةً:

– من الأفضل أن ترجعي إليه أنتِ، لتقضيَ معه ما تبقّى من الحفل.

انهمرت الدموع من مقلتيها معبّرةً عن أسفِها الشديد، قائلةً:

– وما ذنبي؟

ألا تلاحظين أن خطيبك هو من ظلّ ينظر إليّ منذ وصولي؟

كان معها حقٌّ فيما قالت، فهي لم تكن مذنبةً، الذنبُ ذنبُ خطيبي الذي كان معجبًا بها، ولم يكن مقتنعًا أو مكتفيًا بي، فأكد لي ذلك بعدم لحاقِه بي عندما غادرت.

وحتى عندما وصلتُ البيت، لم يتصلْ بي ليعتذرَ مني طوال تلك الليلة.

وفي اليوم التالي، طلبتُ لقاءه، فوافق على ذلك، وحددنا مكانَ اللقاء.

وعندما التقينا، حاول معانقتي معتذرًا، فصددته بلا مبالاة.

فبدأ ينطق ببعضِ كلماتِ الأسفِ التافهة، واعدًا بألّا تتكررَ مجددًا، ودون أن ينبس ببنتِ شفةٍ، أخرجتُ دبلةَ الخطبةِ من إصبعي، وضعتها أمامه على تلك المنضدة، وغادرتُ فورًا غير نادمةٍ على ذلك القرار.

فخسرته، وكسبتُ رفيقةَ عمري.

لم تكن، يا عزيزي، المرّة الأولى التي يُجحف في حقي فيها، أو يؤذيني فيها، كلا، لقد كان يوجعني مرارًا، ودائمًا ما يُثبت لي سوءَ اختياري وتسرّعي في قرارِ ارتباطي به، بيدَ أنه دائمًا ما يُثبت لي أنه غير مكتفٍ بي.

وكنتُ دائمًا ما ألتمس له سبعينَ عذرًا، حبًا وتقديرًا له، وخوفًا من ضياعِ عشقنا.

فلم يُراعِ إطلاقًا غيرتي وعواطفي الصادقة في حبّه، وعلاوة على ذلك، كان يستخدم معي أسلوب الصمت العقابي مرارًا.

فاكتفيتُ برفيقتي، ورجعتْ مياهُ المرح إلى مجاري الصداقة، فنسيتُ ذلك الموقف.

فاختفتْ صديقتي مدّةَ أسبوع، وانقطعتْ عني أخبارُها، فحاولتُ الاتصالَ بها مرارًا، ولكنها لم تُجِبْ على اتصالاتي، ولا تردّ على رسائلي، فراعني الأمر، وظننتُ أنه قد يكون حدثَ معها شيءٌ ما، فذهبتُ إلى بيتها كي أتأكّد من ذلك،

ولكن أهلها قالوا إنهم لم يروها منذ أيّام، فأُصِبتُ بالقلق، ورجعتُ والحيرةُ تعشّش في ذهني.

مضى أسبوعٌ على اختفائها، وفي اليوم الثامن، في خطوةٍ مفاجئة، خطوةٍ خارجَ حدود المنطقِ العقلانيّ، وقانون التوقُّع، سمعتُ خبرًا مفجعًا، ما زال حتى هذه اللحظة يتوسّد حنايا حسرَتي، ويؤلمني حدّ الوجع.

فسمعتُ أن صديقتي قد تمت خطبتها لخطيبي السابق!

لقد وقعتْ تلك الخيبةُ على قلبي كوابلٍ من سهام الحزنِ والآلام.

لم أكنْ متوقّعةً أن رفيقتي ستفعل ذلك وتغدر بي، فهي آخرُ مَن كنتُ أتوقّع منه هذا الشيءَ.

لم يكنْ محضَ صدفةٍ ارتباطُهما، فقد اكتشفتُ مؤخرًا من إحدى الفتيات أنهما كانا يلتقيان باستمرار، ويخرجان في الخفاء معًا في مواعيدَ غراميّة.

وبعد سماعي ذلك، دخلتُ في إغماءةٍ مدّتها يومانِ كاملان.

يومانِ وأنا تائهةٌ في عالمٍ وحدي كنتُ أعلمُه، وعندما استيقظتُ، رأيتُ الناسَ يحتشدون حولي كأنهم أشباحٌ متحرّكة، فكفّتْ ذاكرتي عن التفكير، ولم تستطعْ تمييزَ بؤرةِ الأشخاص حولي بدقّة.

فظللتُ مصابةً بإعياءٍ لأكثرَ من شهر، فظننتُ أنني افتقدتُها إلى الأبد.

وبعد ذلك الشهر، بدأتُ في استرجاع تفاصيلَ معيّنة، وسرعانَ ما بدأتْ ذاكرتي في الصراخ وهي تسترجع تفاصيلَ تلك الصدمةِ القاسية، وبعدها أجهشتُ في البكاء حدّ الوجوم، كأنني تلقيتُها للتوّ.

لقد ظلّتْ تلك الصدمةُ تترقّب استيعابَ ذاكرتي بفارقِ الصبر، لتكونَ أوّلَ ما يوقّع على أرشيفِها، لتظلَّ خالدةً حتى لحظةِ جلوسِك قربي الآن.

فقرّرتُ بعد ذلك الحين قطعَ علاقتي بكلّ ما حولي.

أعلمُ أنني قد ظلمتُ الكثيرَ بقراري هذا، فهنالك أشخاصٌ كانوا داخل محيطِ حياتي لا ذنبَ لهم، ولكنْ صدمتي تلك، كانت كفيلةً بإنهاءِ كلّ ما هو جميلٌ في حياتي.

والآن، وبكلّ اختصار، قد رويتُ لك أهمَّ أحداثِ حياتي، وبكلّ تأكيد، لقد شعرتُ بالراحة عندما أخرجتُ كلَّ هذه الخفايا والأسرار من مكمنِها.

أجل، إنك شخصٌ غريبٌ عني، ولكنني كنتُ في أمسِّ الحاجةِ لشخصٍ ما أُفضي له لكي أخرجَ من طقسِ الكآبةِ والحزن.

أو فلتقلْ إنني كنتُ في حاجةٍ إلى طبيبٍ نفسيّ، وقد حظيتُ بك في الوقتِ المناسب.

***

كنتُ أنصتُ إليها وأنا فاغرٌ فاهي، ومصابًا بالذهول من غرابةِ القصة.

قصةٌ أشبهُ بدراما مسرحية، رغم أن أحداثَها واردةُ الحدوثِ واقعيًّا.

وقد تكونُ الخيانةُ واردةً في كلّ العلاقات، وهي سِمةٌ بارزة، ولكن الشيءَ الذي يبدو لي أنه غيرُ منطقيٍّ البتّة، أن تكونَ الخيانةُ من أقربِ الأشخاصِ إلى قلبها، ورفيقةِ عمرِها الوحيدة، أي نصفِها الآخر كما تحبُّ تسميتَها.

ما أبشعَ الرفاقِ عندما يغدرونَ بنا!

وما أبشعَ الخيباتِ عندما تأتي من أقربِ شخصٍ إلى قلوبِنا!

فكنتُ أُحسّ منذ البداية، أن تلك العينينِ كانتا تحملانِ بداخلهما عالمًا مملوءًا بالأحزانِ والأوجاع، وأنّ تلك الأجفانَ الناعسةَ كانت تشعُّ بوهجِ الحزن.

لم أجدْ كلماتٍ مناسبةً لمواساتها في تلك اللحظة، وبلا أدنى شعورٍ مني، وجدتُني أُمسكُ بيدها، وأقول:

– الآن يا عزيزتي، كلُّ ما يهمّ، أنك استطعتِ جمعَ بقايا روحِك بعد تلك الصدمة، فلكِ أن تعتبري كلَّ ما مضى، مجرّدَ درسٍ سيفيدكِ مستقبلاً، والآن لا تزالُ الفرصةُ أمامكِ لبدءِ حياةٍ جديدة، واعلمي يا عزيزتي أن كلَّ ما يضرُّ المرءَ هو النظرُ إلى الماضي.

إنكِ جميلةٌ بكلّ معاني الجمال، وتستحقينَ العيشَ في سلامٍ نفسيّ، بعيدًا عن ضوضاءِ تلك الخيبات.

كُفّي عن البكاءِ والحزن، فهاتان العينانِ الساحرتانِ لا يليقُ بهما سوى الفرح.

هيا أظهري ابتسامتَكِ الساحرةَ للعالم، ولا تشغلي بالكِ بدنيا الأحزان.

فعندما ابتسمتْ، كأنّ السحرَ تدفّق من ابتسامتها، ليزيدَ ملامحَ وجهها فتنةً وبهاءً.

لم أرَ مثلَ تلك الابتسامةِ قط، ابتسامةٌ تطفو على ملامحِ الحزن، فتهزمُه، فيُصبحُ منصاعًا لأوامرها، ليهربَ إلى عالمٍ مجهولٍ في لحظةِ صفاء.

وقبل أن تتفوّهَ بكلمة، أردفتُ قائلاً:

– عزيزتي شيماء، هل تقبلين بصداقتي؟

ومددتُ يدي مصافحًا إيّاها، ومقدّمًا أوراقَ اعتمادي كصديق.

فأجابتْ بابتسامةٍ طفيفةٍ، قائلةً:

– أوافق، ولكن بشرط.

فقلتُ مبتسمًا:

– أقبلُ بكلّ الشروطِ أيتها الجميلة.

فضحكتْ بعذوبة، واحمرّتْ وجنتاها خجلاً، قائلةً:

– أريدُ أيضًا أن أعرفَ ما قصّتُك؟

وأردفتْ:

– لا مراءَ أن لديكَ قصّتَك الخاصة، وربّما تكونُ أيضًا بالغةَ التعقيد، وإن لم تكنْ شبيهةً بقصّتي!

فانتابَ وجهي سحابةُ حزنٍ عابرة، وقلتُ:

– كيف عرفتِ أن لديّ قصةً معقّدة؟

ردّتْ قائلةً:

– عرفتُ ذلك من خلال شرودِك، وتيَهك وأنت تنظرُ بعيدًا، لا مباليًا بما حولك، فملامحُ وجهك كانت تفصحُ عمّا في قلبك.

علاوةً على ذلك، لا يوجدُ شخصٌ في هذا الكون ليس لديه قصة.

فجأةً، نظرتُ إلى ساعةِ يدي، فنهضتُ قلقًا وقلتُ:

– إن موعدَ إقلاع الطائرة يفصلُه دقائقُ قليلةٌ جدًّا ويأتي.

وأضفتُ:

– والآن يا عزيزتي، علينا التوجّهُ إلى الطائرة.

سألتني بفضولٍ، قائلةً:

– ما رقمُ مقعدك؟

فأجبتُ قائلاً:

– المقعدُ رقم (67).

صاحتْ مندهشة:

– يا إلهي!

وأنا رقمُ مقعدي ((66

فقلتُ بفرحٍ:

– رائعٌ يا عزيزتي، سنكون معًا طوال فترةِ الرحلة.

مُضيفًا:

– سأخبرك بقصّتي على متن الطائرة.

ردّت قائلةً:

– حسنٌ، ستكونُ رحلةً ممتعةً بالكاد.

فقلتُ بحماسٍ:

– لا مراءَ في ذلك يا عزيزتي.

مضيفًا:

– والآن، هيا لنغادر.

وغادرنا المكانَ قاصدين الطائرةَ بخطًى يملؤها شغفٌ غُبِرَ منذ أزمنةٍ في مغبرةِ البؤس.

***

الفصل الثالث

اعتلت الطائرة، وأفردت جناحيها محلقةً في الفضاء.

فغدت «الخرطوم» ككتلة صغيرة وأنا أنظر إليها من فوق عبر نافذة الطائرة.

كانت «شيماء» تترقب قصتي على عتبة شغفها، ودون أن أنبس ببنت شفة، سألتني كمن استدرك شيئًا ما، قائلةً:

– من أين أنت في السودان يا عاطف؟

فأجبتها:

– من «أم درمان».

قالت بدهشة:

– يا إلهي.. وأنا أيضًا من هناك!

فقلت متعجبًا:

– يا لجمال الصدف!

وأردفت قائلاً:

– ولكن مسقط رأسي «النيل الأبيض».

قالت بحزن:

– خطيبي السابق كان مسقط رأسه أيضًا هناك!

سألتها بتهكم:

– أما زلت مغرمة به؟

أجابت بازدراء:

– بل أمقته حد المقت.

وأضافت:

– ما زالت آثار الصدمة عالقة بذهني، وددت لو أن الزمن يرجع بي إلى الوراء كي لا أتعرف به.

قمت بتغيير الموضوع فورًا قبل أن ينزلق إلى محيط الكآبة، فقلت سائلاً:

– وماذا عن دراستك الجامعية؟

أجابت:

– لقد تخرجت قبل شهر في جامعة «الخرطوم»، فدرست في كلية الآداب قسم «الفلسفة».

واستطردت تسألني:

– وأنت؟

فأجبتها:

– تخرجت قبل عام، درست «الهندسة المدنية» في جامعة «السودان».

وأردفت مستاءً:

– ولكن، بكل أسف، ظللت عاطلاً كل تلك المدة، فبحثت كثيرًا في كل الشركات، ولم أعثر على وظيفة.

والآن لدي محاولة في إحدى الشركات السعودية في مدينة «جدة».

فصاحت مبتهجة، قائلةً:

– يا إلهي!! آنت أيضًا ذاهب إلى «جدة»؟

أجبت:

– نعم، بالطبع.

وأردفت بنبرة حزن، مستطردًا:

– ولكني خائف من مرارة الغربة ومعاناتها.

ربّتت على كتفي وهي تنظر إلي بلطف، وقالت:

– أرجوك لا تحزن عزيزي، سيكون كل شيء على ما يرام.

فقلت:

– إن شاء الله، أتمنى ذلك.

صاحت كمن استدرك شيئًا، قائلةً وهي تضع يدها على رأسها:

– لقد نسيت، يا إلهي!! والآن حان الوقت لسماع قصتك.

وأضافت:

– أتمنى ألا تكون تعيسة.

لتضيف أيضًا:

– هيا ابدأ، فأنا متحمسة للغاية، بل على أهبة رياح الشغف والحماس.

فبدأت في تجميع أفكاري، وأيقظت ذاكرتي كي تمدني بجميع الأحداث والتفاصيل، لا سيما أهمها وأبرزها.

ونظرت بعيدًا محدقًا في الأفق عبر النافذة، وبدأت في السرد غير آبهٍ بوجودها بقربي، كأنني سابح في عالم آخر:

– (لكِ أن تعلمي عزيزتي أنني مررت بأبشع أنواع الخيبات، والصدمات، والخذلان، وجميع الانكسارات النفسية.

لقد مررت بجميع الهواجس والكوارث، فتوالت فجائعي فاجعة تلو الأخرى، وفي كل فاجعة تحل بي، أظن أنني لن أعيش بعدها إطلاقًا. فتمضي الأيام رغْمَ حزني، وأوجاعي.. وبعد ذلك أجد نفسي صامدًا، وصابرًا محاولاً إكمال السير في طريقي.

فصار نهج حياتي على هذا المنوال لسنوات حتى وجدتني أستطيع تقبّل كافة الصدمات، والخيبات، وجميع الكوارث والفجائع، وفي حالة تأهب دائم لها في كل حين.

فقد غلّفت الأحزان جدار قلبي بغلاف الفاجعة الذي شكل طبقة فولاذية من عصب الأحاسيس تستطيع مقاومة جميع جيوش الخيبات المتوجهة نحو عمقه.

لقد بات قلبي بذلك الغلاف مثل كوكب «المشتري» وهو يصد عن الأرض جميع الكوارث والأجسام الغريبة التي تأتي مندفعةً، محاولةً معانقة صدر الأرض.

أرجوك لا تقولين إني متجمد الأحاسيس وأصبحت قاسيًا، وقلبي لا ينبض إلا بالصدمات وجفاف العاطفة، أو أنه لا يتأثر مطلقًا.

وبالمناسبة، أنا إنسان مرهف للحد الذي يجعلك تشعرين بالدهشة من طيبة خاطري، ورقّة عاطفتي.

أنا أقصد أن الخيبات، والفواجع والكوارث عمومًا باتت لا تستطيع هزيمتي واهتزازي بعد الآن.

عندما كنت في سن العاشرة تقريبًا، تلقيت خبر وفاة والدي إثر علة لم تمهله قليلاً.

رغم صغر سني في ذلك الزمان، إلا أنني فجعت حد الفجيعة والإعياء جراء الصدمة التي نزلت على قلبي كصاعقة.

فقد كانت أول صدمة تلقيتها في حياتي، وأول الصدمات أرسخها في عمق الذاكرة.

فلم أستطع تجاوزها في تلك الأيام لفترات طويلة.

ففقدت الأمل في كل شيء، وزُرعت في ذهني فكرة ضياع مستقبلي، وكل أحلامي ستصبح سرابًا، وكل أمنياتي ستغدو هباءً منثورًا.

ظلت ذاكرتي في حالة مستمرة من إجترار أحداث تلك الفاجعة، وفي كل حين تصرخ وتدق أجراس حزنها على مسرحها.

ولكن بمرور السنوات، استطاعت أن تتأقلم نوعًا ما على فكرة الفراق بعد صراخها المستمر واشتعال الصراخ بداخلها، فقررت المضي قدمًا بدلاً من بقائي في قفص أحزاني مدى الحياة، وأنه لا سبيل لإرجاع الأشياء التي فلتت من أيدينا وتلاشت إلى الأبد.

ولكني واجهت كل الصعاب التي تقف في طريقي، فتخبطت كثيرًا في طرقات الحياة، وتهت في منعطفات الهموم والأحزان، لقد تدهورت حياتي من النواحي كافة، ولم أستطع العيش في أمان طوال تلك السنوات، ومررت بأبشع أنواع المعاناة، والضائقات الاقتصادية، والانكسارات النفسية، والكثير.

عملت أعمالاً فوق طاقتي وفي أكثر الأماكن قذارة ونتانة. وتحملت أعباء أكبر من حجمي بكثير.

فظلت الخيبات تتبعني أينما ذهبت، وعشت مشردًا في شوارع المدن كضائع يبحث عن طعم الحياة وقتات غذاء الروح.

لقد ضعت في أرصفة البؤس واليأس وأنا أبحث عن السلام النفسي كضرورة قصوى، ولم أفلح في العثور عليه.

أضحت هزيلاً، ممزقًا كأنني خضت معركة داوية تضم في حوذِتها كافة الصراعات وبطش الظروف، ولم أفلح في شيء على الإطلاق.

عشت متجولاً بين أزقة الحرمان عقدًا من الزمان، ولم يشعر بي أحد.

عشت بغيضًا من الجميع كأنني ابن عاق خارج من رحم الغضب واللعنات، وكلما حاولت الخروج من مأزق، أجدني أقع في آخر، وكل محاولاتي تبيء بالفشل مرارًا.

وبات كل من أقصده يكشر في وجهي لا مباليًا كأنه يرى ألد أعدائه.

لقد قطع جميع رفقاء دراستي علاقاتهم بي بعدما فشلت في اللحاق بهم، ولم أجد ما يسندني في محني ويربت على كتفي مواسيًا.

وحدي من ظل يرى أحلامه بعين الخيبة واليأس وهي تتلاشى أمام عينيه.

وحتى تلك التي أحببتها بجنون، ووهبتها كل حياتي مقابل سعادتها، غادرتني ناسية كل مخططاتي معها وتضحياتي في سبيل إسعادها، كأنني مجرد محطة عابرة غادرتها بعدما أخذت قسطًا من الراحة على إحدى مساطِبِها.

فظللت حبيسًا داخل قفص أحزاني، ناسيًا كل ما أرنو إلى تحقيقه في كافة مساعي الحياة، وهكذا عشت أعض على أضراس الأسى بحرقة وندم.

فتوالت السنوات وبداخلي تضيء كل شمعات الخيبة، ولم تكف إضاءتها عن الخفوت.

فشعرت أنني مصاب بلعنة الحياة، ولعنة البشر.

فقررت بعد كل تلك الصدمات والصراعات القاسية، أنه إذا أراد المرء أن يعيش، فعليه أن يعاود النهوض تارة أخرى، بدلاً من البقاء مكبلاً بأصفاد اليأس ولا يفعل شيئًا وهو يقف فقط محدقًا، مشدوهًا في فضاء الآمال.

فقررت حرق جميع أوراق الماضي وزجّها داخل سلّة اللا مبالاة.

وفي ذلك العام الذي قررت فيه المضي قدمًا، قررت الجلوس لاختبار الشهادة الثانوية رغم صعوبة المهمة

والظروف التي لم تكن مواتية لذلك، ولكني تحديت المستحيل وفعلتها!

نعم فعلتها عزيزتي، فحققت نسبة عالية جدًا تؤهلني لدخول كلية الهندسة التي طالما حلمت بدراستها.

وبعد ذلك، أتاني توفيق الله سبحانه وتعالى ليسهل لي مهمة إكمال مشواري الأكاديمي رغم أنني في البداية واجهت صعوبة جدًا في ذلك، إلا أنني ظللت صامدًا أمام كافة الظروف، والعقبات، والعوائق حتى استطعت تجاوز مدة سجن أعوام الدراسة بكل فخر، ناظرًا بازدراء إلى تلك الصدمات التي مضت.

لم تكن تهمني العلاقات مطلقًا، وكنت دائمًا ما اعتبرها مجرد عائق يقف في طريق الحلم.

وكانت علاقتي الوحيدة التي دخلتها –وبكل أسف خرجت منها محملاً بأطنان أوجاع– علاقتي بتلك الفتاة التي خذلتني كغيرها من الرفاق. فكانت لا تنظر لي كعاشق يستحق التضحيات، بل كانت تعتبرني مجرد إتكاء وقتي في غيلولة مشاعر زائفة.

كانت تهاتف غيري عشرات الأولاد غير عابئة بغيرتي وانفعالاتي، وتعكّر صفو قلبي، ومع ذلك ظلت تتهرب من لقاءاتي دومًا، ولم تجب على رسائلي. فاكتشفت أنني غير صالح للحب بكل المقاييس، كنت أتمنى أن أعيش علاقة عاطفية كغيري من أبناء جيلي، ولكني وجدت نفسي أبدو كمهرج وأنا أرتدي أقمصة الغرام، ومعتوهًا في أمسيات اللقاء، فكتفيت بنفسي، ووضعْت أهدافي نصب عين أولوياتي.

فمضى عام على تخرجي، ولم أجد وظيفة شاغرة في إحدى الشركات، ولكن قبل شهر اتصل بي زميل دراستي «صابر مكي» ليبشرني بأنه وجد لي فرصة عمل في إحدى شركات الطرق السعودية.

عزيزتي، لما رأيتك منذ الوهلة الأولى، شعرت بأن بيننا قواسم مشتركة، وكأني أعرفك منذ عصور، فأحيانًا الذاكرة لا تكذب أبدًا، ولا تكذب في إشاراتها، لا سيما عندما ترتبط الأحداث ببعضها، وتتضارب الأحاسيس، وتزدحم الأفكار.

والآن عزيزتي، أتمنى ألا أكون قد أرهقت ذاكرتك وتسببت في حزنك).

***

الفصل الرابع

ظلّت «شيماء» تُحدِّقُ بعيدًا، وفاغرةً فاهَةً حدَّ الغرابة، كأنها كانت تستمع إلى مسلسلٍ إذاعيّ، وترى مشهدًا دراميًّا من نسج الخيال غريب الأحداث والمشاهد أمام عينيها.

وبعد برهة من الزمن، قامت بتجميع أفكارها، ورتّق كلماتٍ مناسبةٍ لمواساتي، عقب ذلك تناثرت قطراتُ دمعٍ

تسيل على خَدِّها الرقيقِ ليعبّر عن حزنها الشديد وتعاطفها مع قصتي المأساويّة.

فأطلقت تنهيدةً فاترةً، وقالت وهي ترنو إليَّ بشيءٍ من العطف:

– والآن صرنا صديقين يا «عاطف».

ومدّت يدها مصافحةً إياي، وأردفت قائلةً:

– أرجوكَ لا تقل إنك وحيدٌ بعد الآن.. سأكون بجوارك متى احتجت ذلك، وإن لم نكن بجوار بعض، فعليك أن تهاتفني في كل حين، حتمًا سأسمعك ولن أكفّ عن دعمك مهما حدث.

وكما ذكرتَ سابقًا عزيزي، بالفعل بيننا قواسم مشتركة للغاية، بل يشبه بعضنا الآخر كثيرًا في كل شيء: الخيبات،

والانكسارات، والخذلان، والفجائع، وإن تكن هناك فوارق فستظلّ الكوارث لها نفس الألم ونفس الجراح وتمزيق الروح.

تصدق يا «عاطف».. أنك أشجع وأقوى شخصٍ صادفته في حياتي، حقيقةً أنت نموذجٌ متكاملٌ للشخص المناضل، المقاتل، المثابر، الصابر، والمعافر. الشخص الذي يؤمن بقدراته وطموحاته، ولا يرضخ للخيبات وما يعقبها من شتات النفس وبعثرة أوراق الأمنيات، فتحديت كل تلك الصعاب، وكل تلك العقبات، والانكسارات حتى تجاوزتها تمامًا.

كل تلك «الفسيفساء» الهائلة من الصعاب لم تستطع هزيمتك!

إنك فعلت المستحيل عزيزي وأنت تقاتل لوحدك، وفي كل مرة تصاب بفاجعةٍ ما، لم تستسلم، بل تعاود النهوض مجددًا، رغم استنفاد كل طاقات الجسد، إلا أن طاقات الأمل داخلك لم تنفد مطلقًا، كأنها تستمد النور من إيمانك وإضاءات الأحلام والأمنيات.

فهنيئًا لمن يجد شخصًا مثلك، حتمًا ستنتقل له عدوى النضال عبرك. وتعسًا لمن فرّط في رفقتك وتجرأ على خذلانك، وبالكاد تعسًا تعسًا لتلك الفتاة التي غدرت بك، ولم تقدّر مشاعرك الصادقة، وطيبة قلبك الحنون، كم هي غبية وغير محظوظة!

لقد أضاعت سبيكة ذهبٍ لا تقدر بجميع أموال الكون، كانت في متناول يدها دون أن تتعب في سبيل الوصول إليها، فحتمًا ستشبع ندمًا ذات يوم.

والآن يا عزيزي أمامك كل الفرص المواتية لعيش حياةٍ أفضل، حياة هانئة تنسيك كل مرارة ما مررت به من أحزان، ورفقة أناس أفضل بكثير من السابقين، أناس يشبهون تفاصيلك ونقاءك، ويستحقون رفقتك.

والآن إمضِ قدمًا نحو أهدافك، وبالكاد لي عظيم الشرف بصداقتك.

***

شعرتُ بدمعةٍ دافئةٍ تتدحرج إلى خدي لتعيدني إلى رصيف وحدتي، وكآبتي، وواقعي المرير بعدما كنت أتسكع في شارع تفاصيل بدايات اللقاء الأولى، بدايات عربون الصداقة وبدايات نماء زهيرات الأحلام.

تلك التفاصيل التي لم تزل متوسدةً على عمق ذاكرتي، فتيقظ غفوتها كلما حاولت الاسترخاء على أسرّة التناسي، وتكسر صمتها كلما أُخمدت نار الحنين بداخلها، لتعاود الصراخ تارةً أخرى.

فقمت بوضع سماعة الأذن تلك على أذني، وأمسكت بالهاتف، فدخلت على قائمة الأغاني وبدأت أستمع لأغنيةٍ للفنان السوداني – مرهف الإحساس – «محمود عبد العزيز» هروبًا من طقس الكآبة، فكانت تلك الأغنية قد قام بغنائها أحد الفنانين في احتفال الجالية السودانية بمدينة «جدة».

وفجأة، وبدون أن أشعر، وجدتني أسترجع تفاصيل ذلك اليوم الذي صادف لقائي الثاني بها في تلك المدينة بعد شهر من لقائنا الأول في مطار الخرطوم الدولي.

بحيث كانت أمسية شتوية حادة البرودة، فلم يكن الشتاء في «السودان» بتلك الرداءة!

فكان والدها صديقًا مقرّبًا لرئيس الجالية هناك، فهاتفتني، وطلبت مني الحضور، وإلحّت على ذلك بإصرار.

لم تكن المرة الأولى التي نتهاتف فيها، فمنذ وصولي، ظللنا باستمرار يهاتف بعضنا الآخر، ونتبادل الرسائل على موقع «WhatsApp»، فلم يكن لدي ما يؤانسني سواها وزميلي «صابر مكي»، ولكنني كنت أحسّ بالأمان معها وحدها، بل إنها الشخص الوحيد الذي خفف عني وطأة الوحدة، وصعوبة التأقلم مع بيئة العمل الجديدة التي تضم أشخاصًا غرباء، فلم يكن بيني وبين زميلي «صابر مكي» تواصل بلا حدود، رغم أنه زميلي، إلا أننا لم نصل مرحلة الصداقة العميقة بعد، وكان التواصل بيننا هامشيًا طوال

أيام الدراسة الجامعية، وكان خبر عثوره على فرصة عملي تلك من وقع الصدفة بعدما أرسلت في «قروب الدفعة» إن كان أحدهم يستطيع إيجاد عمل لي، فأرسل لي أنه يعمل في إحدى شركات الطرق والجسور السعودية، وسيبقى على اتصال بي إن وجد لي وظيفة فيها.

فلحسن حظي كان اليوم جمعة، أي عطلة عمل، فوافقت على الذهاب بلا تردد، فكنت وقتها أحتاج لمن يخرجني من ذلك الطقس الكئيب الذي كنت أعيشه. فكنت أتوق لأجواء حفل طربية، بيد أنني كنت متشوقًا للقاء آخر يجمعني بها، بل كانت تنتابني رغبة ملحّة في ذلك، وكنت أحتاجها.

لا أعلم ما سبب احتياجي لها، رغم أنها مجرد فتاة عابرة التقيتها قبل شهر في استراحة مطار!

ربما لأنها الشخص الوحيد الذي تعرفت عليه في الغربة، أو ربما قد تكون تلك القواسم المشتركة التي اكتشفناها بيننا، أو لأننا قد مررنا بأبشع أنواع الخيبات، ولا مراء أننا أصدقاء الآهة وتناهيد الحزن، وتعرف بعضنا على الآخر بعد صيام الأحاسيس!

فعندما يصبح الشخص جزءًا من محيط حياتنا، فحتمًا سيكون له تأثير على مجرياتها، ولو كان ذلك الشخص هامشيًا التقيناه محض صدفة.

***

الفصل الخامس

وصلتُ صالةَ الحفل، فرأيتُ كمًّا هائلاً من السودانيين نسبةً لأنّ اليوم عطلة، فأحسستُ أنّي في «الخرطوم»، ونسيتُ فورًا كلَّ ضجيجِ كآبةِ الغربةِ الذي كان يطرقُ بابَ ذاكرتي، ويفتحُ أبوابَ حنينِها في كلِّ يومٍ يمرُّ وأنا هنا.

بدأتُ أتجوّل ببصري متفحّصًا المكان، باحثًا عنها، وبينما أبحثُ عنها، إذ بي أسمعها تهمسُ في أذني بدلالٍ، قائلةً:

– أعلمُ، عزيزي، أنّ الذاكرةَ قادتكَ لاسترجاعِ بعضِ الذكريات، وأنتَ تَرقُبُ وجوهَ السودانيين!

فالتفتُّ نحوها متلهفًا، وعندما وقع بصري على عينيها الناعستَين، شعرتُ بتلك الوخزةِ التي أصابت ذاكرتي عندما أبصرتُها في صالةِ المطار.

كانت في تلك الأمسيةِ تبدو أجملَ من قبل، بيد أنّها تشعّ سحرًا كشَمعةٍ تُضيءُ غرفةً معتمةً هُجرتْ منذُ عصورٍ.

كان وجهُها مشرقًا حدَّ البهاء، ولكنّ نظراتِها تتقطّر وميضًا من الأضواءِ والشُعاعاتِ الساطعة، حيث كانت عيناها

بلمعةِ الشغفِ فاتنةً، وأكثر تمرُّدًا من تلك التي كانت تحمل بداخلها هالاتٍ من البؤسِ والأسى.

قطعتْ شرودي بطقطقةِ أناملها الرقيقة، وهي تقول:

– إلى أين؟

وقبل أن أتفوّه، قالت مستطرِدةً:

– لم تكنِ المرّةَ الأولى التي تراني فيها!

أجبتُها والغبطةُ تملأُ وجهي، قائلاً:

– ولكني اليوم رأيتُ فيكِ شيئًا قادني إلى أبعدِ محطّاتِ الذاكرة!

قَطّبتْ حاجبَيْها بطفولةٍ، قائلةً:

– هذا أمرٌ غيرُ جيّد!

قلتُ مندهشًا:

– كيف؟

تُجيب بفلسفةٍ تخلو من الادّعاء:

– لا داعيَ لاسترجاعِ بعضِ الذكريات، وهذا من الأفضلِ لنا.. فأحيانًا يجبُ علينا أن نبقي ذاكرتَنا صامتة تمامًا، بعيدًا عن ضجيجِ العالم، حتى وإن تعمّدنا ذلك.

وأضافت:

– والآن لنجلس، فقد تعبتُ.

فجلسنا على إحدى الطاولات، وقلتُ لها مداعبًا:

– إنّكِ اليوم فاتنةٌ حدَّ السحر!

تردّ بانصرافيّةٍ وهي تنظر إلى الفرقةِ الموسيقية، سائِلةً:

– ما رأيكَ في أغاني «محمود عبد العزيز»؟

أجبتُها بعد تنهيدةٍ قصيرة، قائلاً:

– أغانٍ مترعةٌ بالشجنِ والحنين، فحتْمًا سيجدُ الشخصُ نفسَهُ بين أنغامِها.

واستطردتُ سائلاً:

– هل لكِ قصّةٌ مع إحدى أغانيه؟

تُجيب بعد تنهيدةٍ فاترةٍ، قائلةً:

– في الحقيقةِ، معظمُ أغاني محمود لي معها قصص، أحسُّ أنها مُغنّاةٌ لي وحدي، وأنّها تقصدني!

وأضافت كمن استدرك شيئًا:

– يا إلهي! لقد نسيتُ أن أسألك: ما شعورك الآن؟

وأضافت:

– هل تأقلمت – نوعًا ما – مع بداياتِ الغربة؟

أجبتُها محدّقًا في عينيها، ووجهِها الساحر، قائلاً:

– لولاكِ، ما كنتُ أدري ما أفعل!

وأضفتُ:

– شكرًا لأنكِ طالما ظللتِ تُخفّفين من وطأةِ وحدتي، فلم يسبق لي أن اغتربتُ خارجَ السودان!

تقولُ وهي ترنو إليّ بعطفٍ:

– لا داعيَ للشكر، فالأصدقاءُ سندٌ بعضُهم لبعض، أنا أيضًا كنتُ وحيدةً وأحتاجُ لمن يسمعني ويؤنسني.

وفجأةً، ودون أن أنبِس ببنتِ شفة، نهضتْ في مكانها، صائحةً تُنادي أحدَ الأشخاص:

– أبي... أبي، قف.

وسرعانَ ما طلبتْ مني النهوضَ والتوجّهَ برفقتها نحوه، قائلةً:

– إنّه أبي «عثمان إلياس» الذي حدثتُك عنه من قبل، هيا لنذهب، أريد أن أعرّفك به.

فذهبتُ معها متوتّرًا، ومرتعبًا من خشيةِ عدمِ رضاهُ برفقتي لابنته، وعندما وصلناه، لم يظهر أيّ ردودِ أفعالٍ تثبتُ لي أني كنتُ على حقّ، فقد كان باردًا، وطبيعيًّا، فرحّب بي باحترامٍ، وسألني عن مجالِ عملي، وعن أهلي في السودان، وأسئلةٍ أخرى، وتعرّفتُ به، فأخبرني أنّه يعمل

مستشارًا هندسيًّا في إحدى الشركات السعودية، وانصرف مستأذنًا، ورجعنا حيث أتينا.

فوجدتُها سانحةً لأتعرّف على باقي أسرتها، فسألتُها عن والدتِها، فقالت إنّها تُدعى «سلوى عبد اللطيف»، محاضِرةٌ في إحدى الجامعات التركية، فأحيانًا تأتي من وقتٍ لآخر.

ولها شقيقان، أحدهما يكبرها بعامين، ويدعى «عاصم»، والآخر يصغرها بأربعةِ أعوام، ويدعى «خالد»، وهو طالبٌ في كلية «الطب» بجامعة «العلوم والتقانة» هُناك في السودان.

ولها شقيقةٌ واحدة، تُدعى «عفاف»، وهي أصغرُ أفرادِ الأسرة، ولم تزل في المرحلةِ الثانوية.

فمضى الزمنُ ولم أشعرْ بذلك، فاللحظاتُ الجميلةُ دائمًا ما يسرقُها الزمن، فاستأذنتُ بالعودةِ إلى مقرِّ إقامتي، وفي نفس الوقت كنتُ حزينًا.

قضيتُ ذلك اليومَ وأنا في غايةِ السعادة، فقد كان يومًا ممتعًا، استطعتُ فيه التحرُّرَ قليلاً من أصفادِ الوحدة.

***

اقتحمتْ أمي غرفتي فجأةً لتوقظني من غفوةِ ذكرياتي، وهي تمدُّ لي كوبَ قهوة، قائلةً:

– يا بُنَيّ... إلى متى ستظلُّ حبيسًا داخلَ غرفتك؟

فمنذُ مجيئك وأنتَ لم تخرجْ قط.

بالفعل، طوالَ مدّةِ إجازتي، التي تبقّى منها بضعةُ أيام، ظللتُ معتَكفًا، ولا أرغبُ في الخروجِ إلى أيّ مكان.

لم تزل آثارُ صدمةِ الفراقِ عالقةً بذهني، ولم أستطعْ تجاوزَها، رغم أننا افترقنا منذُ عام، فكلّما أحاولُ الهروبَ من طيفِ «شيماء»، أجدُه يقف أمامي، أجدُه حاضرًا في كلِّ حواسي، متغلغلاً داخلَ خلايا ذاكرتي، ليجعلَها في حالةِ ذهولٍ، وهي تُعيدُ شريطَ تلك التفاصيلِ والأحداثِ في صمتٍ وحزنٍ.

أمسكتُ بكوبِ القهوةِ من يدِ أمي، ووضعتُه جانبًا، قائلاً لها:

– معكِ حقٌّ فيما قلتِ، والآن لديّ رغبةٌ مفاجئةٌ لزيارةِ أحدِ أصدقائي، سأفعلُ ذلك غدًا.

تردّ أمي بشغفٍ، قائلةً:

– نعم، اخرج لترى العالمَ من بابٍ أوسع، الحياةُ جميلةٌ للغاية يا بُنَيّ، وكلُّ شيءٍ قابلٌ للتعويض، فلا تبتئس، فقط ابتسمْ كي تُزيل غطاءَ الكآبةِ الذي يُغطّي وجهكَ بجليدِ الحزنِ.

كان زميلي «صابر مكّي» أوّلَ شخصٍ قرّرتُ زيارتَه في فترةِ إجازتي التي أوشكت على تجاوزِ بضعةِ أشهرٍ، فأخبرني أنّه وصل أمس من «جدّة» لحضور زواجِ شقيقتِه، طالبًا منّي المجيءَ لحضورِ تلك المناسبةِ، والتعرّفِ على أسرتِه.

وفي اليومِ التالي، ذهبتُ إلى منطقةِ «المعمورة»، تلك المنطقةِ التي تسكنُ فيها أسرتُه، وهي من ضمنِ أحياءِ الخرطومِ الراقية، والتي تقعُ جنوبَها.

فقضيتُ معه ثلاثةَ أيام، استطعتُ من خلالها الخروج – نوعًا ما – من محيطِ العزلةِ والكآبةِ التي كنتُ أعيشها حبيسًا في تلك الغرفةِ الكئيبة لأشهرٍ.

وفي أمسيةِ حفلِ زفافِ شقيقته «عابرة مكّي»، وبينما كنتُ جالسًا على إحدى الطاولات، تذكّرتُ تلك الأمسيةَ التي قضيتُها مع «شيماء» هناك في مدينة «جدّة»، فكانت تلك أوّل أمسيةٍ نلتقي فيها، وأوّل لقاء، فانقبض قلبي، وأوشكت ذاكرتي على تقيّؤِ التفاصيلِ كافةً في لحظةِ صمتٍ خيّم عليها.

***

الفصل السادس

حاولتُ الخروج من الحفل، ولكن لاحظ زميلي صابر تغيّر ملامح وجهي الذي بات مكفهرًّا حدَّ اليأس، فهو كان يعلم بعلاقتي السابقة بـ«شيماء»، فأصرّ على أن ندخل ساحة الحفل لنرقص معًا. امتنعتُ في بداية الأمر، لأنني ليس لديّ

معرفةٌ مسبقةٌ بالرقص، ولكن إصراره المُلحّ حال دون ذلك، فدخلتُ معه الساحة.

وبينما أنا أرقص بجوار «صابر»، إذا بي ألمح فتاةً تُشبه حبيبتي السابقة «شيماء» حدَّ الغرابة، بيدَ أنّها تمتلك ذات الابتسامة، وذات العينين الناعستين، وتفاصيلَ أخرى تُفكّرني بها.

انتابتني رغبةٌ في الذهاب إليها، فلم تسعفني جرأتي، واعتبرتُ تلك المحاولة ما هي إلا فتحٌ لباب الحنينِ تارةً أخرى وتأجّجٌ لنار الشوق، فاكتفيتُ فقط بمراقبتها من بعيدٍ بين الفينةِ والأخرى. لاحظتُها أيضًا تسرقُ النظر إليَّ أحيانًا.

تذكّرتُ لحظةَ أوّل لقاءٍ لنا في صالة «مطار الخرطوم الدولي» حيث كنّا نُراقب بعضَنا الآخر.

وإنّ أكثرَ ما لفتَ انتباهي وأيقظ ذاكرتي من صمتها، ذلك الفستانُ الذي كانت ترتديه تلك الفتاة، فقد كان يُشبه الفستانَ الذي كانت ترتديه في اللقاء الآخر الذي جمعَنا في إحدى الأمسيات الشتوية هناك في مدينة «جدّة» في أحد المقاهي.

بدأتْ ذاكرتي في استرجاعِ تفاصيلِ تلك الأمسية، حيث كانت من أجملِ اللحظات.

بعد أسبوعٍ من لقائنا السابق، الذي صادفَ احتفالَ الجالية السودانية هناك، قرّرنا أن نلتقيَ مجدّدًا في مكانٍ ما أكثرَ هدوءًا، بعيدًا عن صخبِ أجواءِ الاحتفال وازدحامِ

الأمكنة. ذهبنا إلى أحد المقاهي الهادئة التي تقع في حدود مدينة «جدّة» المتاخمة للبحر الأحمر، حيث روعةُ المكان، وأجواءُ البحر الساحرة.

وقتها تبادلنا السمرَ لساعاتٍ طويلة، غير آبهينَ بمرورِ عجلاتِ الزمن، وعبورِ قطاراتِ الكآبة.

كانت تلك بدايةَ التوجّه والعبور إلى أكثر أبوابِ الأحاسيسِ عمقًا.

سألتُها بكلّ جرأة:

– شيماء، ألا تلاحظين أننا أصبحنا نُبالغ نوعًا ما؟!

أجابت كأنّها علمتْ ما أَرْنُو إليه:

– أجل، أعلمُ ذلك عزيزي. لا أُخفيكَ القول، إنّني خائفةٌ جدًّا، لا أحتملُ صدماتٍ جديدة. كانت خيبتي السابقة كفيلةً بإغلاقِ أبوابِ قلبي كافةً .

وقبل أن أتفوّه بكلمة، أردفتْ قائلة:

– يجب علينا أن نضعَ حدًّا لهذا التواصلِ يا «عاطف». أرجوك، لا أُريد أن يتلوّث نقاءُ صداقتنا. فأنا لا أرغبُ في خسارتك.

بعد رَدْهةِ تفكيرٍ قصيرة، استطعتُ رَتْقَ كلماتٍ تناسبُ ما قالتْه آنفًا، وقلتُ:

– أرجوك لا تقلقي يا شيماء، أنا أتفهّمُ ذلك أكثرَ منكِ. في كلّ الأحوال، نحن سنظلُّ سندًا لبعضِنا، رغم كلّ الظروفِ والعوائق.

أظنُّ أننا عقلاء، لسنا مُراهقَين كي نتهوّرَ وننحرفَ عن مسارِ صداقتنا لنتورّطَ بقصّةِ حبٍّ ربّما ستُنهي كلَّ ما هو جميلٌ بيننا.

أخرجتْ سيجارةً من عُلبتِها، وبدأتْ تنفثُ فيها ببطءٍ وهي تنظرُ بعيدًا، كأنّها تسترجعُ بعضَ اللحظات، وقالت:

– تعلم يا عاطف، نحن نُشبه بعضَنا كثيرًا، في كلّ شيء.

لا أُخفيك القول، كنتُ أبحثُ عن نِصفي الآخرِ مرارًا، رغم أنني قرّرتُ بكاملِ قوايَ العقلية أن أُقفلَ قلبي نهائيًّا، بل دَحَضتُ فكرةَ الزواج، وجعلتُها ساذَجةً ومُقيّدةً تمنعُ الاستمتاعَ بالحياة، وتُعيقُ كلَّ طرقِ النجاحِ والأحلام. ولكن، بطبيعةِ الإنسان، يصعبُ عليه أن يعيشَ بمفرده طوالَ العمر،

فلا بدَّ من وجودِ روحٍ تُشبهُك، روحٍ تُرمّمُ انكساراتِك، وتُضمّدُ جراحَ أحزانِك وآلامِك.

أمسكتُ بيدِها بكلِّ لهفة، قاطعًا حديثَها، قائلاً:

– كأنكِ قلتِ كلَّ الذي أودُّ قولَه!

يا إلهي.. ما أغربَ تشابهَنا!

مستطردًا بذاتِ الشغف:

– شيماء، أريد أن أُخبركِ بسرٍّ: منذ اللحظةِ التي لمحتُكِ فيها في صالةِ المطار، ظللتـُ أفكّرُ بكِ مرارًا، كأنني أبصرتُ فيكِ روحي التائهة، التي تبحثُ عن مرسىً تحطُّ برحالِها عليه.

وفي كلّ يومٍ يزدادُ تفكيري بكِ، وحتى في أوقاتِ انشغالي، في العمل، في الاستراحة، وحتى في منامي، بتُّ أراكِ. لا

تسأليني عن الأسباب، نحنُ نستطيعُ التحكّمَ في كلِّ شيء، عدا قلوبِنا، فهي تسيرُ كما يحلو لها. إنّها الشيءُ الوحيدُ يا عزيزتي الذي لا نقوى على التحكّمِ به.

نعم، إنّنا أصدقاء، ولكنّي أدمَنْتُ وجودَكِ في عالمي، أدمَنْتُكِ لدرجةٍ أنّني لن أستطيعَ تحمّلَ لحظةٍ واحدةٍ بدون سماعِ صوتِكِ.

أطلقتْ تنهيدةً فاترة، تبعتها قطراتُ دمعٍ تناثرتْ على خدِّها، واحمرّ وجهُها، وابتلّتْ رموشُها الغزيرة. وبعد لحظةِ صمتٍ قصيرة، قالتْ ولم تزلْ بقايا الدمعِ على رمشِها:

– هذا ما كنتُ أخافُه. ليتَنا لم نلتقِ أبدًا!

يحدثُ ذلك معي أيضًا. إنّك الشخصُ الوحيدُ الذي جعلَ ورودَ قلبي الذابلة تتفتحُ من جديد، بعدما كانتْ ميتةً كأنّها في أرضٍ قاحلة!

ثَمّةَ شعورٌ بالحياة ينتابُ قلبي في كلّ ثانيةٍ من حياتي وأنتَ فيها، وثمّةَ كلامٌ كثيرٌ بداخلي أُريد الإفصاحَ به، وثمّةَ تفاصيلُ كثيرةٌ أرغبُ في رَتْقِها، وهناكَ جروحٌ بدأتْ في التلاشي بعدما أبصرتُك وتوالتْ لقاءاتُنا.

وثمّةَ أوجاعٌ بداخلي بدأتْ في المغادرة كأنّها لم تكن.

بداخلي ضجيجُ عالمٍ بأسرِهِ يضجُّ بك، وكلُّ دقّةٍ من دقاتِ قلبي أصبحتْ تنبضُ هاتفةً باسمِك.

لذلك دعنا نُوقّع وثيقةَ عقدِ علاقتِنا المُبهمة، خاليةً من التقييداتِ كلّها، دعْها علاقةً مفتوحةَ الحلقات، خوفًا من الفقد.

وكما أخبرتُك من قبل، إنني أخافُ من الفقدِ حدَّ الوجوم، لا سيّما عندما يتعلّقُ الأمرُ بفقدانِك يا «عاطف».

شعرتُ في تلكَ اللحظةِ برغبةٍ ملحّةٍ في عناقِها، بل شعرتُ بأنّني على وشكِ قولِ: «أحبّكِ يا شيماء»، ولكن قلبي أيقظني لأكفَّ عن التهوّر، فأجّلتُ ذلكَ لوقتٍ لاحق، وقلتُ وأنا أُمسكُ بيدِها الرقيقة:

– أظنُّ أنّه لا يحدثُ فِراقٌ مجدّدًا يا «شيماء».. كلُّ العلاقاتِ التي مضتْ، لم تكن سوى اختياراتٍ خاطئة. أتدرينَ ما مشكلتُنا؟

إنّنا نتسرّعُ في اتخاذِ القرارات، ونُبالغُ في عاطفتِنا قليلاً، ونهدرُ طاقاتِ مشاعرِنا في أشخاصٍ لا يستحقّون جزءًا ضئيلاً من جمالِ ونقاءِ قلوبِنا.

فبالتالي نتعرّضُ لأبشعِ أنواعِ الخيباتِ والصدمات، كأنّنا وحدَنا من اختارَ ذلك الوجع.

عزيزتي، ماذا لو عاد بنا الزمنُ إلى الوراء، والتقينا قبل أولئك الذين وقعنا في حبّهم؟ لما كنّا تعرّضنا لتلك الأوجاعِ والصدمات. فلكلٍّ منا روحٌ تُشبهُ روحَه، وقلبٌ يشعرُ بما يحتاجُ قلبُه.

ردّتْ قاطعةً حديثي، قائلة:

– دعنا لا ننظر إلى الوراء، دع الماضي يمضي بخيباتِه وتفاصيلِه المختلفة، ودعْنا نتركُ ذلكَ للأيامِ القادمة، فهي

من تكشفُ سرَّ تلك العلاقة. فلو أرادتْ أن تتطوّرَ ويعشقَ أحدُنا الآخر، فلا بأس، حتمًا سأكونُ أسعدَ إنسانةٍ في الوجود. وإن أرادتْ غيرَ ذلك، فيجبُ علينا أن نرضى بقضاءِ الله. ووقتها سنكونُ قد خرجْنا بلا خسائرَ أو خيبات، وتبقى صداقتنا كما هي، وهذا أفضلُ لي ولك.

والآن لقد تأخّر الوقت، دعنا نذهب.

فلملمتُ بقايا فرحتي داخلَ حقيبةِ آمالي مُنتشيًا، ورجعْنا ممسكينَ أياديَ بعضِنا، نمتطي جوادَ البهجةِ غيرَ عابئينَ بكبوتِه القادمة.

قطع حبلَ تفكيري فجأةً صوتُ صديقي «صابر مكي»، الذي أعادني إلى ساحةِ الحفل، قائلًا:

– والآن العشاءُ جاهزٌ، هيا، إنّي جائعٌ حدَّ الهلاك!

لم أستطع تناولَ الطعام، حيث لم تكنْ لي نفسٌ لتناوله. وفي تلك الليلةِ استأذنتُ مغادرًا، وعدتُ إلى البيت.

***

ها أنا الآن رجعتُ مجدّدًا إلى تلك الغرفةِ المعتمة، وعدتُ أيضًا لوحدتي، وكآبتي.

كيف لي بالصبرِ، عزيزتي «شيماء»، على فُقدِك؟

هنا لم يطبْ لي المقام، وأخافُ إن قضيتُ إجازتي وذهبتُ إلى «جدّة»، لا يطيبُ لي المقامُ هناك أيضًا.

أصبحتُ أحسُّ بالعالمِ كلِّه كأنّه جحيمٌ، وأنا مُلقىً في عمقِه.

فبدونِك يا «شيماء»، لم تكفَّ ذاكرتي عن الصراخِ بتفاصيلِك، وكلُّ حواسّي تنطقُ بكِ في كلّ حين.

ليتَنا لم نلتقِ، كما قلتِ لي سابقًا في ذلك اللقاء، وكأنّك كنتِ على علمٍ بما سيحدثُ لي من وجعٍ وآهات.

أصبحتُ لا يهمّني في هذه الدنيا شيءٌ قط، وأعلم أنّني، حتّى وإن انقضتْ إجازتي وذهبتُ إلى هناك، لن أُفلحَ في عملي إطلاقًا. وكيف أُفلحُ، وأنتِ تحتلّين كلَّ أفكاري، وتقطنين داخلَ قلبي كشريانٍ رئيسيٍّ ينقلُ الدمَ إليه ليهبَ له الحياة؟!

ذات مساءٍ، قلتِ لي:

(إذا جفَّ شريانُ الحبّ من دماءِ الوصل، تظمأُ كافّةُ حدائقِ الأحاسيس، فتصبحُ كمقابرَ جاثيةٍ على رُكبِ الفاجعة).

بالفعل، هذا ما قد حدث.

رغم أنّني استغرقتُ زمنًا طويلاً في ترجمةِ هذه العبارة، إلا أنّني أيقنتُ تمامًا أنّه لم تَعُد بعد الآن حدائقُ الأحاسيسِ داخلَ قلبي تعاودُ الازدهارَ مجدّدًا. لقد أصبحتْ ظمأى بالكاد، ولا مراءَ أنّ شريانَ الحبّ لم يَعُد ينبعُ بالوصل، ولكنّه ينبعُ بالأوجاعِ داخلي.

كيف لي أن أتخلّصَ من شعاعِ عينيكِ الذي بات يرمقني في كلّ حين، رغم بُعدِ المسافات؟!

فكلّما حاولتُ الاندثارَ والتخبّؤَ منه، أجدُه يتغلغلُ في ذاكرتي، لتُطلق صرخاتٍ داويةً تُفجّر كلَّ ينابيعِ بحيراتِ قلبي، التي ما زلتِ تسبحين داخلَ أعماقِها، غيرَ عابئةٍ بمخاطرِ تياراتِ الشوق، وأصدافِ الدهشة، ولآلي الوئام!

عزيزتي «شيماء»...

أودُّ أن أُخبرك بأنّني ما زلتُ أُعاودُ تكرارَ مشاهدِ جميعِ اللقاءاتِ في كلّ حين، مُسترجعًا تفاصيلَها.

***

الفصل السابع

توقّفتُ عن التفكيرِ لبرهةٍ، وأمسكتُ بكوبِ القهوةِ الذي ارتشفتُ نصفَهُ وشغلني عنه التفكيرُ، فحاولتُ رشفَ ما بقي منه. وفجأةً، ودون أن أنبسَ ببنتِ شفةٍ، وقعَ بصري على تلكَ الولاعةِ البيضاءِ التي تقفُ أمامي وسطَ مجموعةٍ من الأوراقِ المبعثرةِ وبعضِ الدفاترِ المهترئةِ. فأنزلتُ كوبَ القهوةِ

من يدي، وأمسكتُ بها وتأمّلتُها، وبينما أنظرُ إليها بتمعّنٍ وتركيزٍ، إذا بي أسترجعُ تفاصيلَ ذلكَ اليومِ الذي أهدتني فيه «شيماء» تلكَ الولاعة.

لقدِ احتفظتُ بها أكثرَ من عامٍ، وكنتُ أعدّها أغلى ما تبقّى من ذكرياتي.

أذكرُ في ذلك اللقاءِ الذي عَقِبَ لقاءنا الأخيرَ بأسبوعٍ، مدّت لي كيسًا به بعضُ الهدايا الصغيرة، كان من بينها عطرٌ، وساعةُ يدٍ، ومحبسٌ من فضةٍ، وتلكَ الولاعةُ البيضاء، قائلةً:

– أرجو أن تحتفظَ بواحدةٍ من هذهِ الهدايا، وكلّما اشتقتَ إليّ، تأمّلها.. ولكَ أن تختار.

فابتسمتُ وقتها، وقلتُ:

– أنا لا أرغبُ في هديةٍ سواكِ يا «شيماء».

وطلبتُ منها أن تُغمضَ عينيها لبرهةٍ، فضحكت قائلةً:

– تُريد مفاجأتي؟!

فأغمضتْ عينيها، وفجأةً أخرجتُ سلسالاً من جيبي، ووثبتُ ناهضًا.

أتيتُها من الخلفِ، وقمتُ بوضعهِ على عنقها، فزادها جمالاً وأناقةً.

صاحت بفرحٍ طفوليٍّ، قائلةً:

– يا إلهي! كم يبدو جميلاً! دمتَ لي يا عزيزي.

واستطردتْ:

– جميلٌ للغايةِ هذا السلسالُ، لا مراءَ أنه باهظُ الثمن، سأحتفظُ به دومًا، فهو يُعدّ أولَ هديةٍ منك، بل أغلى هديةٍ تلقيتُها في حياتي.

أحسستُ في تلكَ اللحظةِ باستسلامٍ تامٍّ يُخيّم على كلِّ حواسي، وبات قلبي مصابًا بانصهارِ المشاعرِ التي ذابت مع خاماتِ اللهفةِ لتصنعَ أحدَ مباني العشقِ.

شعرتُ بأنها اللحظةُ المناسبةُ للإفصاحِ بعواطفي، وحبي، وصبِّ كلِّ الأحاسيس، غيرَ مبالٍ بردّاتِ الفعلِ والخيبات.

أحسستُ أن طولَ الانتظارِ ربّما يُضيّعها من يدي في لحظةِ جُبنٍ وكبرياءٍ، فتصبحُ بعد ذلك وهمًا عابرًا، أو تغدو سرابًا.

أسعفتني جُرأتي، وصمتت ذاكرتي، وتوقّفت عن التفكيرِ في كلِّ شيءٍ في تلكَ اللحظةِ عداها، تجمّدتْ كلُّ محطّاتِ العواطفِ جرّاءَ جليدِ الإفصاحِ القادم.

نهضتُ في مكاني، وطلبتُ منها الوقوفَ أيضًا، أحسّت بشيءٍ قريبٍ قادمٍ نحو بوابةِ دهشتها، كأنّها علمتْ ما يدورُ في مونولوجِ أفكاري القادم، طلبتُ منها أن تمنحني يدها، ففعلت.

قلتُ بكلّ وضوحٍ وشفافيّةٍ، غيرَ آبهٍ بوجودِ أيِّ شيء:

– «شيماء».. أخبرتُكِ من قبلُ أنّني دومًا في حالةِ ترقّبٍ لكافةِ الصدماتِ والخيبات، أليس كذلك؟

قالتْ والدهشةُ تُكبّلُ تقاطيعَ وجهها:

– أجلْ، حدث، ولكنْ ما المناسبةُ؟

أجبتُها وأنا أتمعّن عينيها السوداوين بكلّ لهفةٍ، قائلاً:

– أنا لا أريدُ خسارتك، أصبحتُ لا أُطيقُ العيشَ بلاكِ، ولا أحتملُ أن أراكِ مع غيري.. شيماء، إن لم أُفصحْ لكِ بما

أُحسّ، حتمًا سأندمُ طوالَ عمري على ضياعكِ من يدي.. شيماء، أنا...

وتلعثمتُ، ووجدتُ صعوبةً بالغةً في بلعِ ريقي من رهبةِ الكلمةِ القادمةِ، أعتقدُ أنها أصعبُ كلمةٍ يقولُها العاشقُ في لحظةِ استسلامِ الخلايا العشقيةِ، والقلبِ المتيّمِ.

فأطلقتُ العنانَ لحنجرتي، كاسرًا كلَّ قيودِ التأني، وقلتُ بنبرةٍ خافتةٍ، كأنّني متهمٌ يعترفُ بجريمته في محكمةٍ دوليّة:

– أنا أحبك ...!

أحسستُ برجفةِ يديها، وارتعاشِ جسدها النحيل، وابتلّت رموشها، وبات قلبُها يرفُسُ، يكاد أن يخرجَ من قفصِها الصدري، وسالتْ عيناها دموعًا، وخارت قواها، وجلستْ بصعوبةٍ على الكرسي.

صمتٌ مريبٌ يُخيّمُ على المكان، حاولتُ تجميعَ بقايا رَتْلِ أفكاري المتزعزع، ولم أفلح في ذلك.

فأحسستُ بعد ذلكَ كأنّ جبلاً من الهمومِ وقع من صدري، وطلبتُ منها الاسترخاءَ، وعدمَ الردِّ، والتفكيرَ بأيّ شيءٍ في تلك اللحظة. فعندما نُصابُ بشللِ الأحاسيسِ اللحظي، تتوقّفُ ذاكرتُنا عن التفكير، ويزدادُ صمتُها.

وبعد دقائقَ معدودةٍ، قامتْ بجمعِ جزءٍ قليلٍ من أفكارها، وقالت:

– أُريدُ الذهابَ إلى البيت، أشعرُ ببعضِ الدوار.

فانصعتُ لأمرها، وذهبنا إلى السيارة، وأدرتُ المحركَ بكلّ هدوء.

لم ننطقْ طوالَ رحلتنا، فأوقفتُ السيارةَ بالقربِ من منزلهم، وغادرتُ قاصدًا مكانَ إقامتي، والحيرةُ تحتشدُ في قلبي.

***

مضتْ ثلاثةُ أيامٍ ولم يتّصلْ أحدُنا بالآخر، فتركتُ لها مساحةَ تفكيرٍ كاستراحةٍ قصيرةٍ تُلملمُ فيها شتاتَ فكرِها وتأتيني بردٍّ يُسعدني.

نعم، اعترفتُ لها بحبّي، وأفصحتُ لها بكلّ ما أكتمُه في خاطري من عشقٍ وأحاسيسَ أضحتْ تنبضُ بحبها حينًا بعد حينٍ، ولا مراءَ أنني قلتُ ذلك بكاملِ وعيي وملء إرادتي، ولكنني رغم ذلك، لن أُجبرَها مطلقًا على تقبّلِ كلّ مشاعري تلك ناحيتها، أو على أن تُبادلني شعورَ الحبّ، رغم أنني أعلمُ

جيدًا أنها تعشقني كثيرًا، ربما أكثرَ منّي، فهي دائمًا ما كانت تُلمّح لي بذلك مرارًا في كلّ مساءٍ نلتقي فيه، وفي كلّ رسالةٍ نصيةٍ تُرسلها لي، وفي كلّ مكالمةٍ هاتفيةٍ تجمعنا ببعضٍ.

فأعتبرتُ تلكَ التلميحاتِ ليست سوى إشاراتٍ لفتحِ بابِ الدخولِ إلى بوابةِ قلبها التي ظلّت موصدةً لأمدٍ بعيدٍ.

ولكنها رغمَ ذلك لم تُفصحْ لي أبدًا.

أحيانًا، كبرياءُ الأنثى يمنعُها من التسرّعِ في اتخاذِ القرار، ومن الاعترافِ المباشرِ لعاشقها، بيد أنّ الأنثى تمتلكُ حكمةً أكثرَ من الرجلِ فيما يخصُّ الجانبَ العاطفي.

ولا مراءَ أنها تأخّرتْ عن الردّ إلى غايةِ هذهِ اللحظةِ، ربما خوفًا من تكرارِ ذلكَ الخطأ الذي غيّرَ مسارَ حياتها العاطفيةِ كليًّا، وغيّرَ طريقةَ تفكيرِها عمومًا في العلاقاتِ.

أخبرتني ذاتَ مرةٍ أنها تخافُ من فقدي جدًا بالتورطِ في علاقةِ حبٍّ معًا، لا سيّما أنَّ الحبَّ أكثرُ تقييدًا من الصداقة، فالصداقةُ رابطٌ جميلٌ ومليءٌ بالرقيّ والاحترامِ المتبادل، على عكسِ الحبِّ الذي يُقيّدُ صاحبَهُ بأحكامِه.

وقتها سيكونُ هنالكَ ثمّةُ خذلانٌ، وخيباتٌ، وعتاباتٌ متتاليةٌ، وشجاراتٌ بلا مبرراتٍ منطقية، وتتحوّلُ المشاعرُ إلى كراهيةٍ، واللحظاتُ السعيدةُ إلى كئيبةٍ.

وقتها يقلُّ الاحترامُ، وتزدادُ الصراعاتُ النفسيةُ، ويُصبحُ التواصلُ بلا حدودٍ، وتَصيرُ الفاجعةُ على أعتابِ الوصولِ، ويفترقُ العاشقانِ.

أنا لستُ نادمًا على قراري الذي اتخذتُه، أو أقولُ إنني تسرّعتُ قليلًا، فالحبُّ يأتي أحيانًا بلا توقيتٍ أو تخطيطٍ مسبقٍ.

فيمكنُ لنا أن نعشقَ شخصًا رأيناه لتوّنا قبل لحظاتٍ دونَ أن يكونَ حضورًا في ذاكرتنا مسبقًا، لذلك لا يُخطئُ القلبُ قطُّ في إحساسه، فعندما ينقبضُ حين نرى أحدًا ما، فهذهِ إشارةٌ قويةٌ لأمرٍ ما علينا الإنتباه له.

ومنذُ أولِ خفقةٍ له هاتفةٍ لشخصٍ معيّنٍ، وقتها يكونُ أمامك خيارانِ لا غير: إمّا أن تبلغَ عمقَ المحيطِ، أو تبقى خارجَ برِّ شاطئِ الغرامِ، وبذلك تكونُ قد خرجتَ بأقلّ الخسائرِ، وأقلّ الصدماتِ.

ولأنني أخشى ضياعَ الفرصِ، لا سيّما أنَّ تلكَ الفرصةَ كانتْ أغلى الفرصِ في حياتي وأثمنها، قرّرتُ الغوصَ في ذلكَ المحيطِ غيرَ عابئٍ بجرفِ تيارِ الكوارثِ، والخساراتِ الفادحةِ التي طالما اعتدتُها في حياتي.

فلقدْ أتاني القدرُ بـ«شيماء» على هيئةِ ملاكٍ، كأنّها أتت على مقاسِ أحلامي، وروحي التي ظلّت وئيدةً في مقابرِ الوحدةِ لأزمنةٍ وعصورٍ من اليأسِ حتى باتتْ غبراءَ، شعثاءَ. فلذلك أُريدُ الفوزَ بها بكلِّ المقاييسِ، وكلِّ الطرقِ الممكنةِ.

***

الفصل الثامن

في مساءِ اليومِ التالي، وبينما أنا شاردٌ في تفكيري بها، إذ بهاتفي يهتزُّ برسالةٍ نصِّيّةٍ، فأخذتُه ولهفتي تُسابقُ عينيّ إلى رؤيتِها. قرأتُ نصَّها الذي كان يحمل:

(أنتظرُك اليومَ في ذلك المكان، هيّا، لقد استفحلَ الشوقُ، وطالَ انتظاري).

فخفقَ قلبي، وصرتُ مُحلِّقًا في فضاءِ الفَرحةِ، وارتديتُ رداءَ بَهجتي، وارتشفتُ توتّري، وذهبتُ مُمتطيًا جوادَ شغفي، الذي كنتُ أبدو كأميرٍ على صَهوَته.

فلمّا التقينا، وجدتُ صعوبةً في التحديقِ في عينيها، كأنّني أراها لأوّلِ مرّة، فقد كنتُ قبل ذلك مُتوارِيًا خلفَ حِجابِ تَستُري، وكَتمِ مشاعري. أمّا الآن، فأحسستُني عاريًا بعدما خلعتُ ذلك الحجاب.

لم تكنِ الأمسيةُ الأولى التي تبدو فيها فاتنةً، فهي فاتنةٌ في كلِّ الأمسيات.

فجلستُ بقُربِها صامتًا، وشعرتُ بذاكرتي أنّها في تلكَ اللحظةِ صمتت عن الضجيج، في لحظةِ هدوءٍ مفاجئ، كأنّها

تترقّبُ قُدومَ عاصفةٍ مُرتقبة، وقرّرت أن تكونَ هي أوّلَ من يبدأُ بكسرِ حاجزِ الصّمت.

وبالفعلِ كَسرتْه، فقالتْ مُعاتبةً وعيناها تشعّانِ بلمعاتِ الحَنان:

– لماذا لم تتّصلْ بي طوالَ تلكَ المدّة؟

أجبتُها ممازحًا:

– كي تشتاقي إليَّ أكثر!

ابتلعتْ ابتسامتها، وابتسمَ ثَغرُها، قائلةً:

– لو تعلمُ أنّني أشتاقُ إليك في كلِّ لحظةٍ تمرّ وأنت بعيدٌ عنّي.

خرجتُ من مَتنِ التوتّر، وقلتُ مُعاتبًا:

– إذًا، لماذا لم تتّصلي بي؟

تُجيب قائلةً:

– وَدِدتُ الاتصالَ بكَ في ذلكَ اليومِ الذي افترقنا فيه، ولكنّي تردّدتُ، ولم أجدْ ما أقولُه لك!

وأضافتْ:

– لا تَقُلْ إنّني كنتُ في هذه المدّة أفكّر في اتخاذِ قراري، فأنا كنتُ قد اتّخذتُه قبل اعترافكَ لي!

خفقَ قلبي فجأةً، فقلتُ مُتلعثمًا:

– هذا يعني؟

– حَسنٌ، ستَفهمُ ذلك.

ظللتُ صامتًا أُنصِتُ إليها بكُلِّ حواسِّي، وهي كانت تسردُ:

– عزيزي «عاطف»، لا أُخفيكَ قولاً، لقد كنتُ خائفةً للغايةِ من التورّطِ في حُبِّكَ، وحاولتُ مرارًا ألّا أدعَ قلبي يُبالغُ في شعوره نحوك، ويذهبَ بعيدًا... وذلكَ خَوفًا من فقدانِك.

ولكنّي كنتُ أيضًا لا أُريدُ ضياعكَ من يدي، ولا أَحتملُ فِكرةَ فوزِ فتاةٍ بقلبِكَ غيري.

نعم، عزيزي، إنَّ الحُبَّ مليءٌ بالعقباتِ، والهواجسِ، والخَيَباتِ، ولكنّه شيءٌ جميلٌ... جميلٌ للغاية، ويكمنُ جمالُه في وجودِ روحٍ تُشبهُ أرواحَنا، نُكمِلُ معها مِشوَارَ العُمر.

الحُبُّ، يا عزيزي، ليسَ مجرّدَ تبادُلِ هدايا، وعناقٍ طويلٍ مُشبَعٍ بالحنان، أو تبادُلِ قُبُلاتٍ مُلتهبةٍ في أمسياتٍ رومانسيّة، أو مغامرةٍ يتبنّاها مُراهقانِ، حالمانِ، مُغامرانِ.

الحُبُّ أكبرُ بكثيرٍ من ذلك.

وما الحُبُّ سوى روحَينِ تعانَقَا عناقًا أبديًّا داخلَ حُضنِ الأحاسيس... أو فلتقُلْ: هو كوكبٌ مُتفردٌ سكنتْ فيه أرواحُ العاشقين، ولم تَجدْ سبيلاً للخروجِ منه.

وأمسكتْ يدي، وهي لا تزالُ تنظرُ في عينيَّ، وأضافتْ قبل أن أتفوّهَ بكلمةٍ واحدةٍ:

– والآن حانَ الوقتُ لأقولَ، وأُعلِنَ بكاملِ إرادتي العاطفيّة، وملءِ جوفِ عواطفي، أنّني أيضًا قد وقعتُ في

شِباكِ حُبِّكَ، ولا أَحتملُ العيشَ بدونكَ لحظةً واحدةً، غيرَ عابئةٍ بما يحملهُ القَدرُ، وما يُخبّئهُ من فواجِعَ وصدماتٍ.

وسالت دمعةٌ يتيمةٌ على خدِّها، وهي تُضيفُ:

– وإنْ حدثَ شيءٌ حالَ دونَ إكمالِ مشوارِ حبِّنا – ولا أتمنّى حدوثَ ذلك – فحتمًا ستكونُ أجملَ ذِكرى في دُنيتي، وأجملَ ما وَقَعَ على شِغافِ قلبي.

وضغطتْ على يدي بقوّةٍ، ويدُها ترتعشُ، وقالت:

– وأنا... أنا أُحبُّكَ أيضًا، يا عاطف.

دونَ أدنى شعورٍ منّي، وجدتُني أُعانقُها بعنفٍ، كاسرًا كُلَّ التقاليدِ، غيرَ عابئٍ بها، كأنّني مُمثِّلٌ في فيلمٍ سينمائيٍّ، وقلتُ وما زلتُ أُعانقُها بشدّةٍ:

– حبيبتي... كم تبدو عظيمةً هذه الكلمة!!

حبيبتي شيماء، كنتُ أعلمُ ذلكَ مُسبقًا، أعلمُ صِدقَ عواطفِكِ ناحيتي، أعدُكِ بأن أفعلَ كلَّ ما بوسعي، بل سأفعلُ المُستحيلَ من أجلِ البقاءِ معًا إلى الأبدِ، مهما كانتِ الظروف.

أحسستُ بدفءِ دُموعِها في كتفي، فأنهيتُ العِناقَ بعدَ ذلك.

وقالتْ بنبرةٍ حزينةٍ، ولكنّها لا تخلُو من مُناغاةٍ:

– أعِدني ألّا تتركني مهما حدَث.

فقلتُ وأنا أمسحُ بقايا دَمعِها:

– أعدُكِ بذلكَ، حبيبتي.

قالتْ بالذاتِ النبرةِ:

– حتى وإنْ تزاحمتِ المشاكل؟

قلتُ مؤكّدًا:

– شيماء، دعينا نفعلُ كلَّ شيء، دعينا نتشاجر، ونتخاصم، ويُعاتب أحدُنا الآخرَ ويلعنه، ويَكره أحدُنا الآخر، دعينا نحزن، ونسقط، ونقف، ونسير مجددًا، نفعلُ كلَّ ذلك، بشرطِ ألّا نفترق.

فأومأتْ برأسِها مُبتسمةً، وقالت:

– حتى وإنْ فعلنا كلَّ هذا، مستحيلٌ أن يَكرهَ بعضُنا الآخر.

وأضافتْ:

– والآن، صار مسموحًا لي قول: (حبيبي عاطف)!

إذًا، حبيبي عاطف، أنا أُحبّك أكثرَ من قبل.

فضحكتُ حدَّ البهجةِ، وقلتُ:

– إنّها المرّةُ الأولى التي أشعرُ فيها أنّ اسمي لهُ معنى، ما أجملَه وأنتِ تنطقينه!

قطّبتْ حاجبَيها بعنفٍ طُفوليٍّ مُفاجئ، وقالت:

– يا إلهي ... لقد تأخّر الوقتُ كثيرًا، الآن صرتُ تحتَ مسؤوليّةِ رجلٍ يُحبُّني، ويغارُ عليّ، ولا يحتملُ العيشَ بدوني، وبالكاد يُلبّي جميعَ طلباتي... أليسَ كذلك؟

فقلتُ والغبطةُ تَسِمُ ملامحي:

– امُري بما تشائين، لكِ كلُّ ما في هذا الكونِ، عزيزتي.

قالت باسمةً:

– أُريد الذهابَ إلى البيت، فغدًا لديّ حدثٌ مهمٌّ للغاية.

فقلتُ:

– أعلم أنّ يومَ غدٍ يُصادفُ عيدَ ميلادِك... لقد أعددتُ لكِ هديّةً مُسبقًا، سأجلبُها لكِ غدًا، وقتها سأكونُ أوّلَ الحاضرين.

قطّبتْ حاجبَيها مرّةً أُخرى، قائلةً:

– إنْ لم تفعلْ ذلك، سأقتلك!

فقلتُ مُستسلمًا:

– قتلتِني منذ أوّلِ نظرةٍ رمقتِني بها!

تردُّ بانصرافيّةٍ:

– دعنا نذهبْ إذًا، ونُؤجّلِ المُداعباتِ لوقتٍ لاحقٍ.

وذهبنا مُغادرين المكان، تاركينَه يفوحُ برائحةِ عبقِ المشاعرِ، وتَتقبّلُ زواياه آثارَ الرومانسيّة.

***

في عشيةِ اليومِ التالي، اصطحبتُ زميلي «صابر مكّي» معي لنحتفلَ ثلاثتُنا بعيدِ ميلادِ الأميرةِ «شيماء».

وبينما نحن في الطريقِ، اقترح عليّ أن أتخذَ خطوةً أكثرَ جدّيّةً فيما يخصُّ علاقتَنا، قائلاً:

– من الأفضلِ يا «عاطف» وقبلَ فواتِ الأوانِ أن تتقدّمَ فورًا لخطبتِها ما دامَ لا يوجدُ ما يعيقُ ذلكَ.

فقلتُ:

– أفكّرُ في ذلكَ، وبالكادِ لا يوجدُ ما يعيقُ ذلكَ.

فقال كمن استدركَ شيئًا:

– والدُها يا عاطف!!

فقلتُ:

– ومالُهُ؟

قال:

– هل يعلمُ بعلاقتِكما؟

قلتُ:

– لا أظنُّ، لقد طلبتُ من شيماءَ أن تضعَهُ أمامَ الأمر الواقع، فهو أهمُّ من يعرفُ بذلكَ.

فسألني:

– هل تعتقدُ أنّه سيرفضُ ذلكَ؟

فقلتُ مؤكّدًا:

– مستحيلٌ، لأنَّ شيماءَ تعشقُني حدَّ الجنونِ.

فقال وهو ينظرُ بعيدًا:

– ولكن أحيانًا قد لا يكونُ العشقُ وحدَهُ كافيًا!

فقلتُ:

– وأحيانًا الحبُّ يصنعُ المعجزاتِ!

سألني أيضًا:

– يومَ تعرفتَ به، كيف حلّلتِ شخصيتَهُ؟

أجبتُ:

– شخصيةٌ ذاتُ جبروتٍ، ولكنها لا تخلو من طيبةٍ وبراءةٍ.. هكذا همس لي حدسي.

فقال:

– لا مراءَ أنّه قام بتحليل شخصيتِك، ولم يصبْه الضجرُ عندما رآكَ برفقةِ ابنته.

فقلتُ:

– نعم... ولكنه لم يكن على علمٍ بأنّي سأكونُ الزوجَ المستقبليَّ لابنتهِ، أظنُّ أنّه كان يعتبرُه لقاءً عابرًا فحسب، أو يعتقدُ أنّني أحدُ زملائِها.

قال بحزمٍ:

– لا بدَّ أن يعرفَ بعلاقتِكما، وفي أسرعِ وقتٍ.. ربما يأتي أحدٌ فيتقدّمُ لخطبتِها.

فقلتُ مقتضبًا:

– لن يحدثَ ذلكَ، سأقاتلُ الجميعَ من أجلِها.

ولم ينبسْ ببنتِ شفَةٍ، أوقفتُ السيارةَ أمامَ المنزلِ، فتقدّمنا نحوَ البابِ، وقمتُ بطرقهِ ثلاثًا، فتحتِ البابَ

شقيقتُها «عفاف» مبتسمةً وكأنّها كانت أيضًا على علمٍ بقدومِنا، فقالت وهي تفسحُ لنا مجالاً للدخولِ:

– تفضّلْ أيّها العاشقُ.

وصاحت مناديةً لأختِها شيماءَ:

– شيماءُ... لقد وصلَ فارسُ أحلامِكِ.

فضحكتُ وكذلك فعلَ صابر، فسألتها:

– كيف حالُكِ أيتها الأميرة؟

تجيبُ بنبرةٍ شقيةٍ، قائلةً:

– بخيرٍ... وأنتَ أيّها الوسيمُ؟

يردُّ صابرُ، قائلاً وهو يبتسمُ:

– من أينِ عرفتِ أنّه عاشقُ شيماءَ؟

تدخلتُ قائلاً :

– يبدو أنّ شيماءَ هي من أخبرتها بذلكَ.

وسألتها:

– أليس كذلكَ أيتها الشقيّةُ؟

حضرت شيماء فجأةً لتقطعَ الحوارَ وهي تقولُ بابتسامتها المشرقةِ:

– مع من تتحدثُ؟

تعلمُ أنّني أغارُ جدًا إن خاطبت فتاةً غيري.

أجبتها وأنا أنظرُ إلى «عفاف» مبتسمًا:

– عفاف لطيفةٌ للغايةِ.

وأردفتُ سائلاً:

– كيف عرفتِ بعلاقتِنا هذهِ الشقيّةِ؟

ضحكت عفاف قائلةً وهي تنظرُ إلى شيماء:

– إنني أمتلكُ حاسةً سادسةً، فأنا أعلمُ بكل لقاءاتِكما، وبالمناسبةِ... أنا من كان يختارُ لشيماءَ كلَّ فساتينِ الخروجِ في المواعيدِ الغراميّةِ.

تدخل صابر مادحًا:

– ذوقُكِ جميلٌ للغايةِ!

تدخلتُ كمن استدركَ شيئًا، وقلتُ:

– يا إلهي، لقد نسيتُ أن أعرفكما ببعضٍ.

وأردفتُ قائلاً:

– شيماءُ، هذا صديقي وزميلُ دراستي «صابر مكّي».

وأضفتُ:

– صابرُ، هذه شيماءُ حبيبتي كما تعلمُ من قبلُ.

ابتسمت شيماءُ قائلةً:

– لقد تشرفتُ للغايةِ، أهلاً.

وقال صابر بلطفٍ:

– لقد تشرفتُ أكثرَ عزيزتي.

تدخلت عفاف بإنصرافيةٍ، قائلةً:

– والآن دعونا نذهب لنحتفل، فإنّ الساعة قد أوشكت الثانيةَ عشرةَ.

وأضافت:

– اليومَ أمي وأبي خارجَ المنزلِ، وهذه فرصةٌ جيدةٌ لنسهرَ معًا حتى الصبحِ.

***

دخلنا إحدى الغرف التي تخصصُ للاحتفالاتِ، وبدأنا الاحتفالَ، فقمنا بإطفاءِ الشموعِ، وبعد ذلك قمنا بتقطيع كيكةِ الحفلِ.

ودون أن يشعرَ أحدٌ، أخرجتُ علبةً صغيرةً من جيبي، وفتحتها. فأخرجتُ منها محبّسًا ذهبيًّا أنيقًا، وطلبتُ منها أن تمدَّ لي إصبعها، فاحمرت وجنتاها وتوارت خلف ستارِ استحيائها، ومدّتْه لي.

فقمتُ بإدخال المحبّس فيه، وهمستُ لها في أذنها، قائلاً:

– (كلُّ عامٍ وأنتِ بجواري يا أحلى أميرةٍ).

فهرولت مستأذنةً، وخرجت من الغرفة، وأتت بعد برهةٍ قصيرةٍ تحمل في يدها علبةً صغيرةً، فأخرجت منها محبّسًا فضّيًّا، وامسكت بإصبعي وأدخلته فيه، لتهمس لي أيضًا في أذني، قائلةً:

– (وأنت بجواري يا رفيقَ قلبي، وتوأمَ روحي، ومصدرَ فرحتي).

فعانقنا بعضنا في مشهدٍ رومانسيٍّ تجمعت فيه كلُّ أشكالِ الرومانسيةِ.

وبعد ذلك العناق، قبَّلنا بعضنا غير عابئين بوجود صابر وعفاف، وكأننا لوحدنا في تلك الغرفةِ.

وفي أثناء تبادلنا القبلَ، صفق صابر ومعه عفاف، وكأنهما أمام مشهدٍ غراميٍّ لعاشقَين نالا إعجابَ الجمهورِ بكلّ براعةٍ.

لم يكن هناك ما يعكّر صفو الاحتفال، نسبةً لهدوءِ البيت وخلوّه من باقي الأسرةِ لذلك كانت أمسيةً عامرةً بالمتعةِ.

فجأةً نظر صابر إلى ساعةِ يده، فصاح مفزوعًا:

– يا إلهي!!

لقد أوشكت الساعةُ على الرابعة والنصفِ فجرًا، والآن هيا لنغادر يا عاطف.

وغادرنا بعد تلك الليلة التي ستظلّ من ضمنِ الليالي الخالدةِ في عمقِ الذاكرةِ.

***

الفصل التاسع

سقطَتِ الولاعةُ من يدي على المنفضدةِ، محدثةً صوتًا أعادني إلى الواقعِ، قاطعًا حبلَ تفكيري الطويلَ في استرجاعِ كلِّ تلكَ التفاصيلِ السابقةِ، وفجأةً صاحتْ أمي وهي تناديني، قائلةً:

– عاطفُ... أخرجْ، لقد أتى شخصٌ لزيارتك.

فتركتُ الأوراقَ مبعثرةً، والولاعةَ في مكانها، وأطفأتُ الشمعةَ وخرجتُ.

فوجدتُ صديقي «صابر» ينتظر مع أمي خارجًا، وأمامهما أواني قهوةٍ صغيرةٍ تُستخدم في طقوسها.

فتعانقنا بحرارةٍ، وقلتُ لأمي ممازحًا:

– هل دفع هذا الشابُ ثمنَ القهوة؟

فضحك بصوتٍ عالٍ، وقالت أمي وهي تعاود النظر إلى صابر:

– إذن هذا صابرُ الذي حدثتني عنه كثيرًا!

تدخل صابر معاتبًا إيّاي، قائلاً:

– لماذا لم تحضر معك خالتي «سُلافة» لحضور مناسبةِ الزواج؟

فأجبتُ بأسفٍ:

– كان ودّي ذلك، ولكن أمي كانت مريضةً، لذلك لم تستطع الذهابَ معي.

وأضافت أمي قائلةً:

– نعم يا ابني، ولكن في المرةِ القادمةِ عندما تتزوج أنت، سأكون بالكاد حاضرةً.

ابتسم، وقال وهو يقبل رأسَ أمي:

– شفاكِ الله يا أمي، ولكِ طولُ العمرِ.

وأضاف:

– كنت أرغب بزيارتكم منذ وصولي، ولكن ترتيباتِ الزواج حالت دون ذلك.

ترد أمي وهي تمد لنا كأسين قهوةٍ، قائلةً:

– بالمناسبة، مباركٌ زواجُ شقيقتك، لقد سررتُ للغايةِ من أجلها.

يرد شاكرًا:

– شكرًا يا أمي، وأنا أسعدُ بزيارتكم.

تدخلتُ سائلاً إياه:

– لماذا لم تعلمنا بزيارتك لنا؟

أجاب قائلاً:

– قصدتُ ذلك بداعي المفاجأة.

وأضاف كمن استدرك شيئًا:

–عاطفٌ.. أريدك في موضوعٍ مهمٍّ.

قلتُ:

– حسنًا، لنذهب إلى غرفتي ونناقش هذا الأمر.

– هيّا.

***

دخلنا الغرفة، فجلس على إحدى الأرائك، ونظر إلى تلك الولاعة، وفجأة،ودون أن أنبس ببنت شفةٍ، قال:

– أما تزال محتفظًا بها طوال هذه المدة؟

فتنهدتُ قائلاً، وطيفٌ من الأسى يعم أرجاء وجهي:

– نعم ما زلتُ يا صابر... فهي الجسر الوحيد الذي يربطني ببعض الذكريات مع صاحبها.

فقال متهكمًا:

– أولم تحاول نسيانها؟!

أجبتُ قائلاً:

– حاولت ذلك مرارًا، ولكن دون جدوى.

وأردفتُ:

– ولا أعتقد أنني سأنسى أو أتجاوز، الأمر صعبٌ يا صاح!

قال بتهكمٍ:

– لقد تعرضت حياتك لشتى أصناف الخيبات، والصدمات، ألم تقل إن قلبك اعتاد على ذلك، ولم يتأثر مطلقًا؟

أجبتُ متنهّدًا:

– نعم، ولكن تلك الصدمة كانت الوحيدة التي لم أستطع تجاوزها.

قال:

– لا شيء مستحيل.

قلتُ:

– فبإمكان المرء أن يتجاوز جميع الصدمات، عدا صدمة فراق شخص أحبّه بصدقٍ، ووجه كل منابع عشقه نحو مصبات تفاصيله، وروحه، فبات مريضًا بتلك التفاصيل.

كيف لي بالتجاوز يا صابر؟

نهض في مكانه منفعلاً، وقال بحزمٍ:

– ولكن عليك التحلي بالشجاعة أكثر، الحياة مليئة بالفتيات، لم تكن شيماء أول فتاة وآخرهن، فلا تدع حياتك

تقف على فتاةٍ واحدةٍ أيًّا كانت، فتاةً لم يراعِ والدها لعواطفك الصادقة، أو يراعي لعواطف بنته التي أحبّتْك بصدقٍ، وكان كل همّه المال بغض النظر عن سعادةِ بنته أو تعاستها، وفوق هذا، لماذا هي لم تقاتل معك حتى النهاية؟

كان بإمكانها فعل ذلك، وما من فتاةٍ يصعب عليها فعل شيءٍ مهما صعب.

فلذلك كان من الأفضل لكَ فراقها، صدقني هؤلاء الأشخاص لا يشبهونك البتّة، فأنت شخصٌ بريءٌ، وصادقٌ في إحساسك، بيد أنك وسيمٌ تتمنى عشراتُ الفتياتِ رفقَتك، والفوز بقلبك النقيّ.

صدقني عامٌ كثيرٌ جدًا، أنت الآن على وشك إكمال إجازتك التي تبقى منها أيامٌ معدودةٌ، لذا عليك التجاوز حتى

وإن تعمدت ذلك، عش ما تبقى لك من أيامٍ خارج هذه الغرفة، وأخرج لترى النور وتودع كل البؤس وكل تلك التفاصيل المميتة التي أرهقت ذاكرتك لعهدٍ من الزمان.

أجبتُ بعد برهةٍ وأنا أنظر إلى تلك الولاعة بأسى:

– سأحاول ذلك، رغم كلّ رغمٍ كلّ ركنٍ في ذاكرتي يصرخ هاتفًا باسمها، أعدك سأحاول، رغم أنني أعلم مسبقًا أنني لا أستطيع نسيانها، فهي تغلغلت، وامتزجت مع خلاياي.

ولكن حتمًا سأحاول، مهما صعب الأمر، ومهما تزايدت صرخات ذاكرتي بتفاصيلها.

فقال وهو يربّت على كتفي:

– نعم، أنت قادرٌ على فعلِ ذلك، أنا أعلم.

فقلتُ بإنصرافيةٍ، مغيرًا الموضوع:

– والآن دعنا من هذا، ما الموضوع الذي تريدني فيه؟

قال كمن استدرك شيئًا:

– يا إلهي، لقد نسيت!

وأضاف قائلاً:

– أريدك أن تذهب معي هذا المساء إلى حي «الطائف» لخطبة بنت خالي.

فصحتُ مبتهجًا:

– يا إلهي!!

إنه أجمل خبر أسمعه، مباركٌ مقدمًا أيها العريس، أتمنى من الله أن يكمل الفرحة.

ومددتُ يدي لأصافحه، فقال بفرحٍ:

– العاقبة لك بعون الله.

فقلتُ سائلاً:

– هل الجميع يعلم بهذا الأمر، أم قررت ذلك الآن؟

أجاب قائلاً:

– الكل يعلم بذلك، عدا خالي، فلم أفاتحه في الأمر، ولكن ليس لديه أي مشكلة.

سألته مجددًا:

– هل الفتاة ترغبُ بك؟

أجاب قائلاً:

– أجل، فكلانا يعشق الآخر منذ صغره.

فقلتُ مبتسمًا:

– هذا أمرٌ جيد.

وأضفتُ قائلاً:

– الآن أنا تحمست أكثر، فكانت لدي مسبقًا رغبةٌ في الخروج عن طقس الكآبة.

فنهض في مكانه، قائلاً:

– والآن عليك تجهيز نفسك جيدًا.

مستطردًا،مداعبًا:

– ربما سنجد لك عروسًا في تلك المناسبة.

قلتُ بمرارةٍ:

– لا أريد الارتباط الآن، دعني أفرح بك أولاً.

يرد قائلاً:

– سيأتي كل شيء في وقته المناسب، لا تقلق، والآن علينا الخروج، فالجميع ينتظرنا، سأتركك الآن كي تجهز نفسك، وسأنتظرك خارجًا.

***

وصلنا حي «الطائف» مع بدايات المساء، وهو أحد أحياء «الخرطوم» الأنيقة بالكاد. فدخلنا المنزل، وفجأةً، ودون مقدمات، شعرتُ بذاكرتي تعاود الصراخ مجددًا، وبدأت تجتر تفاصيل ذلك اليوم الذي قررتُ فيه خطبة «شيماء». وقتها اصطحبت معي صابرًا، وكان ذلك في مواعيد أشبه بتلك.

فقد كان ذلك القرار بعد علاقة حبٍ دامت لأشهرٍ، لقد كانت أشهرٌ مفعمةٌ بالفرح، والبهجة، واللقاءات، والمشاوير، والعواطف، والتفاصيل، والهدايا وما إلى ذلك.

كانت أجمل شهورٍ قضيتها في حياتي منذ بدايتها، وحتى هذه اللحظة.

فخططنا معًا لتلك اللحظة طوال تلك الشهور، حتى أتى الوقت المناسب لأهم خطوةٍ في مشوار عاشقين، مرهفين، يأملان في مغادرة جميع الهواجس والأحزان.

فدخلتُ منزل أسرتها وفرحتي تسابق أقدامي، آملاً بقطف أجمل وأرقّ زهرة في بستان الأسرة.

فطرقت الباب متلهفًا، فكانت هي من قام بفتحه.

فلما رأتني أقف أمامها وفي يدي أحمل باقة ورد، سقطت على الأرض وهي تجهش بالبكاء بحرقةٍ.

فراعني الأمر، وأحسست أن هناك شيئًا ما، وانقبض قلبي، فحاولت حملها، ودون أن أنبس ببنت شفةٍ، صاح والدها من مكانٍ ما منفعلاً :

– أبعد يدك، من أنت أيها الوقح؟

فانقض قلبي أكثر، وشعرت أن الأرض كادت تبتلعني جراء تلك النهرة المفاجئة.

وأضاف قائلاً بتلك اللهجة:

– أأنت من حاول التلاعب بمشاعر أبنتي شيماء؟

ما أوقحك، وما أوقحها!

فانفعل صابر، وأراد التصدي لكلماته، ولكنني منعته من ذلك، وظللت صامتًا أسمعه وهو يتفوه بذات النبرة المستفزة:

– هي لم تخبرك أنني أخبرتها أن تمنعك من الوصول إلى بيتي؟

فبدأ قلبي يخفق، ويكاد أن يخرج من قفصي الصدري، ووجدت صعوبة في بلع ريقي، وشعرت ببعض الدوار.

ألقيت نظرة على شيماء، فوجدتها جاثية على ركبتيها وهي تبكي، والدموع تنهمر من مقلتيها كشلالٍ قويّ.

اقترب مني، فشعرت بأنفاسه حارةً حدّ غضبه، وقال وهو يشير بيده إلى الباب، قائلاً:

– والآن اخرج من هذا الباب، ليس لدي بناتٍ للزواج، ابنتي أريد أن أنكحها لإبن أخي الدكتور «عصام مبارك» أكبر أخصائي جراحة قلب هناك في السودان، اتصل بي أمس وأنا وافقت فورًا، فهو أولى بها من فقيرٍ وقح مثلك.

فأحسست بشعورٍ غريب، وبدأت كل حواسي في التجمد، وشعرت بنبضات قلبي أوشكت على الوقوف، وفجأةً، ودون أن أنبس ببنت شفةٍ، وجدتني أسقط أرضًا فاقدًا للوعي، فأصبت بإغماءة ظننت أنني لم استيقظ منها أبدًا.

استيقظت بعد بضع ساعات، فوجدتني في إحدى المشافي، يجلس بجانبي صابر وهو يرنو إلي بشيءٍ من الأسى والحزن.

فبقيت عاجزًا عن النطق، وظللت محدقًا أمامي بعيدًا في مكانٍ ما، متجرعًا سموم الخيبة بانتظام.

وبعد يومين، خرجت من ذلك المشفى، وعقلي لم يزل في إجازة عن التفكير، ومشوشًا، وغير مستوعب ما حدث، فظننته كان مجرد كابوسٍ في حلم.

وفي المساء وجدت رسالة نصية منها، فترددت في البداية على فتحها، ولكني فتحتها لأرى ما بداخلها، فكان نصها:

(أرجوك لا تحزن يا عاطف... أنت تعلم جيدًا أنني أحببتك أكثر من نفسي، ولا أحتمل فاجعة فراقك مهما حدث، الأمر خرج عن سيطرتي، فحاولت كثيرًا إقناع أبي، وزرفت له أنهارًا من الدموع، وأكثرت له البكاء مرارًا، ولكنه لم يتفهم الأمر، أو يرضخ لتوسلاتي له.

أبي صعب للغاية، أنا أعرفه جيدًا، فهو شخص أناني إلى أبعد الحدود، لا سيما عندما يتعلق الأمر بالمال، فهو كل ما يهمه في هذا العالم، ولا تهمه سعادتي أبدًا. فهددني بالقتل، وأجزم إن لم أرضَ بابن أخيه، سيقتلني ويقتلك أيضًا، وأنا أخاف عليك أكثر من روحي.

أخبرتك من قبل إن لم يُرد القدر أن يجمعنا، فستكون أجمل شيء حدث لحياتي، كما أخبرتك من قبل أنه لا داعي للإفراط في المشاعر، والتورط في الحب، ولكن الآن لا يجدي ذلك نفعًا، وحدث ما كنت أخشاهُ، هذه الرسالة ستكون الأخيرة، أرجوك أحتفظ بمكاني داخل قلبك، ولكَ أن تطمئن أن مكانك سيبقى فارغًا إلى الأبد، ولا يسد فجوتَه سواك.

سأغيّر نمرة اتصالي، فلا أرغب في تعذيبك أكثر من ذلك... أرجوك اعتنِ بنفسك جيدًا، أحبك حتى المنتهى "حبيبتك شيماء").

وقع الهاتف من يدي، وأحسستُ بالدوار تارةً أخرى، وأجهشت بالبكاء حد الجنون، فأُصبتُ بإغماءةٍ جديدةٍ جراء الحزن والأنين.

فشعرتُ في تلك اللحظة أنني فقدُتها إلى الأبد، وتلاشت عن عالمي كحلمٍ عابرٍ.

فلم أستطع بعد ذلك الاستمرار في تلك الشركة لأنها تذكرني بها، فتحولتُ إلى شركة أخرى، ولكني بعد بضعة أشهر رجعتُ مرةً أخرى للعمل في شركتي السابقة بأمرٍ من صاحبِها لأنه لم يجد مهندسًا يسُد الفجوة التي تركتُها في

مجالي، فعملتُ فيها لشهرٍ واحدٍ، ومن ثم طلبتُ إجازة وعدتُ إلى السودان.

***

الفصل العاشر

كانت تلك آخر رسالة، وآخر تواصل بيني وبين «شيماء».

ولم أَعْلَم بعد ذلك ما حدث في حياتها.

ربما قد تكون الآن قد أنجبت مولودها الأول، فقد أخبرتني بذلك ذات حُلم، عندما رأيتُها وهي تركض خلف طفلٍ

صغير، وتنادي باسمه، قائلةً: «أفق يا عاطف، أرجوك لا تذهب بعيدًا».

أذكر في تلك الليلة، استيقظتُ مفزوعًا، وأجهشتُ في البكاءِ حدَّ الإعياءِ.

فلم أستطع تفسير ذلك الحُلم حتى الآن. هل كانت تقصدني أنا، وترجوني أن لا أبتعد عنها؟

أم كانت تقصد بذلك أنها تطلب مني أن لا أنساها؟

أم كان ذلك الطفل هو ابنها الذي أنجبته، وقامت بتسميته على اسمي؟

كل تلك التفسيرات، لم أستطع تحديد أيٍّ منها حتى هذه اللحظة.

شعرتُ بيد «صابر» تربت على كتفي، وهو يقول قاطعًا حبل تفكيري:

– لا تُفكِّر، أرجوك، دع ذاكرتك تكفُّ عن الصراخ.

مستطردًا:

– والآن وصلنا منزل عمي، دعنا ننزل وندخل.

مسحتُ أثر دموعي، وتعمدتُ الابتسام رغم مرارة شعوري، وتجرعتُ ألمي عُنْوَةً، كي لا أفسد الأمسية بتراتيل الحنين، ودخلنا المنزل.

أول ما لفت انتباهي، عمٌّ صديقي «صابر»، كان يُشبهُ إلى حدٍّ بعيدٍ والدَ «شيماء»، نفس الملامح التي يتصف بها، هي نفسها التي عنده.

لا أدري لماذا انتابتني رغبةٌ في الخروج من المنزل؟!

ربما تذكرتُ ذلك الموقف الذي حدث معي، وخشيتُ أن يتعرض له صديقي «صابر».

ولكن أحيانًا، الملامح وحدها لا تكون مقياسًا للبشر، لذلك هدأتُ قليلاً، وبقيتُ صامتًا أراقب خلف جدارٍ أدبيٍّ.

وبينما كنتُ مُوجَسًا من ملامح ذلك الرجل المُتمرِّد، إذ به يصيح مبتهجًا، قائلاً:

– أهلاً بالجميع، أنرتم منزلنا بنور محياكم، تفضَّلوا أيها السادة.

والتفت نحو «صابر»، قائلاً مداعبًا:

– والآن، حان وقت قطاف أجمل زهيرة في بُستان عائلتنا، لذا أرجو أن تحافظ عليها جيدًا، وتسقيها بماءِ الوُدِّ والاحترام.

انتابتني رغبةٌ مُلحَّةٌ في البكاء، كم تمنيتُ أن أسمع هذه الكلمات الجميلة، الدافئة، المطمئنة من والد «شيماء»!

فجأة، أتت فتاةٌ جميلةٌ حدَّ الخيال، تحمل صينيةً بها أكواب عصير، وهي تبتسم بحياءٍ، جميلة وفاتنة بكل تفاصيلها، ولكنها لم تكن أجمل من «شيماء» في الأمسياتِ كافة.

همس لي «صابر» فجأة، قائلاً:

– إنها العروس «رانيا»، ما رأيك؟

أجبته بابتسامةٍ طفيفة، خارجةً من بين حنايا الألم، قائلاً:

– جميلة... أتمنى لكم السعادة الأبدية.

وفجأة، ودون أن ينبس ببنتِ شفة، طلبتْ منه أمُّه أن يُدخِل المحبس الذهبيَّ في إصبع خطيبته الرقيق، ففعل، وبادلته هي أيضًا ذلك، بإدخال محبسٍ فضيٍّ في إصبعه، وتمت الخطبة، فرجع «صابر» مع أسرته فرِحًا، وعدتُ أنا إلى البيت أُجرجر بقايا حزني.

عدتُ بعد قضاء تلك الليلة المميزة، رغم أنني كنتُ حزينًا وقتها، إلّا أنني استمتعتُ، وسعدتُ جدًّا لصديقي «صابر».

في صبيحة اليوم التالي، دخلتُ غرفتي، وألقيتُ نظرةً أخيرةً على تلك الأشياء الموجودة على سطح المنضدة، والتي عشتُ حبيسًا لتفاصيلها.

واتخذتُ أشجعَ قرارٍ في حياتي: فقررتُ أن أودع تلك التفاصيل المميتة وداعًا أبديًّا، وأن أحاول قدر الإمكان

نسيانها، وإن لم أستطع، سأُرغم نفسي على تجاهلها، حتى وإن تعمدتُ ذلك.

فلقد أمضيتُ عقدًا في الأسى، وبالغتْ ذاكرتي في الصراخ، واجترار كل لحظات الشجن.

قمتُ بجولةٍ قصيرةٍ حول تلك التفاصيل والذكريات، وكان هدفي من تلك الجولة هذه المرة، النظر إليها بعين الكبرياء والسخرية، لا من أجل فتح باب الحنين كعادته.

وسرعان ما عدتُ منها لا مُبالِيًا، وقلتُ في نفسي:

أنا لم أكن ظالمًا قط، ولم أتجرأ على الظلم أبدًا طوال حياتي، ولم أُجحف في حق أحد، أو يومًا تجرأتُ على الأذية.

فلماذا أُبالغ في جلد ذاتي، وأتلذذ بتعذيبها؟!

فقمتُ بجمع كافة الأشياء والتفاصيل التي تُذكرني بها داخل كيسٍ صغير: الأوراق المبعثرة، ولاعة السجائر، محبس الفضة، الشموع، الدفاتر المهترئة، وثمّة قصاصاتٌ ورقيةٌ تحمل على متنها رسائلَ غراميةً كُتبتْ في أمسياتٍ دافئةِ العاطفة، وساعةِ اليد التي أهدتها لي في لقاءٍ سابق.

كل تلك الأشياء، وضعتها داخل كيسٍ أسودَ صغير، وحملتها وخرجتُ قاصدًا النهر، وكان الوقت صباحًا، ولم تشرق الشمس بعد.

***

وصلتُ النهر، فقد كان هادئًا بعض الشيء، ولم تكن هنالك قوةٌ في تياره، فاستغللتـ وجود قاربٍ صغيرٍ يقف

وحيدًا في مكانٍ ما على شاطئه، فوضعتُ الكيس بداخله وركبته، متجهًا به نحو العمق.

فلما وصلتُ مكانًا بعيدًا، ألقيتُ الكيس بكل ما أملك من قوة، فبات يتلاشى رويدًا رويدًا حتى غاب عن بصري تمامًا.

وأدرتُ المحرّك متجهًا إلى مكانٍ ما بعيدًا لا أعلمه، وبصوتٍ عالٍ ملء جوفي، بدأتُ أقول:

(لا بدّ لي أن أعيش أيتها الخيبات، لا بدّ أن أعيش، سأعيش من أجل نفسي، رغمًا عن كل الأوجاع، رغمًا عن كل الصدمات، رغمًا عن الخذلان، رغمًا عن الجراح وعواصف الحزن، ورغمًا عن صراخ الذاكرة، وسأعيش لأنني أستحق ذلك، ولا يوجد في هذا الكون ما أَحزنُ لأجله).

وبعد أسبوعٍ، قررتُ الرجوع إلى «جدة» من أجل مواصلة عملي في تلك الشركة، فثمّة أحلامٌ غير التي ماتت، أرغب في تحقيقها، وثمّة أُمنياتٌ أخرى كثيرةٌ تنتظرني لأُحققها، وحتْمًا ستكون هنالك أُمسياتٌ أخرى مليئةٌ بالفرح والسعادة.

فما زال الفرح باقيًا في الوجود، ولا مراءَ سأعثر عليه يومًا.

وأهمُّ شيءٍ، وأكثر ما يُشعرني بالأمان ويُطمئنني حد السّلام، وجود أمي، وهي أغلى ما عندي، تستحقُّ أن تفرح بي، وأفرح بها.

ولم أنتظر ما تبقى لي من إجازة.

وفي اليوم الثامن، وصلتُ المطار، وفجأةً رأيتُها تنزل من إحدى الطائرات، وهي تتأبَّط زوجها، وتحمل طفلها الصغير،

لقد أصبحتْ أكثرَ فتنةً وجمالاً من قبل، فأبصرتني، وبدأتْ تصرخ، هاتفةً باسمي والدموع تنهمر من مقلتيها.

يبدو أن ذاكرتها استيقظتْ من غفوتها، وعادتْ إلى صراخها الذي ربما كان قد خمد منذُ زمنٍ طويل، عندما رأتني مصادفةً غير مخططٍ لها، أو ربما قد لا أكونُ حضورًا في ذاكرتها أصلاً بعد كل هذه المدة.

فحاولتْ ذاكرتي فتحَ بابِ الحنين لتُعاود الصراخَ مجددًا، وشعرتُ أنني أريدُ معانقتها حالاً رغم وجود زوجها، ولكنني أحسستُ بشيءٍ ما أخذ يُخمِد ثورةَ صِراخِها وكأنها لم تكن حبيبتي من قبل!

ربما إرادتي في الحياة، والمضيُّ قدمًا رغم عواصف الفاجعة، أو ربما باتت بؤرةُ الألم غير ساريةِ المفعول، ومن المُحتمل

أيضًا أن تكون نبضاتُ المشاعر داخلي قد أُرهِقت، ولم تَعُد تُعاود النبض!

فتضاربتِ الأفكارُ والاعتقاداتُ في مُخيلتي، في وقفةِ حدادِ العواطف التي غدتْ شبهَ ميتة، أو قد تكون ماتتْ بالفعل بعد عُهودٍ من الألم، والنواح، والندم، واسترجاع تفاصيلِ لحظاتِ الصفاءِ الأولى.

فابتسمتُ غير عابئٍ بصراخها، وكأنها تُنادي أحدًا غيري، وسِرتُ في طريقي، قاصدًا الطائرة التي أوشكت على الإقلاع.

«انتهت»

الدويم / ولاية النيل الأبيض

الساعة 10:00مساءً

مايو / 2025م

الفهرس

الإهداء.....5
اقتباس.....6
مقدمة 7
الفصل الأول.....9
الفصل الثاني.....30
الفصل الثالث 57
الفصل الرابع.....74
الفصل الخامس.....83
الفصل السادس.....95
الفصل السابع 111
الفصل الثامن.....123
الفصل التاسع 145
الفصل العاشر.....166